

فتحية القلاء

للحب.. وجه آخر

وقصص أخرى

ففي هذا الكتاب

1- فار التنور

2- الزمن الآخر

3- ضد كل شيء

4- للحب وجه آخر

5- جزر بلا شواطئ

الإهداء

إلى الغائب الذي لا يغيب...

فائق

فَار التَّنُورِ



"موقفاً" عن العمل لعدم اللياقة العقلية " التقط الإنذار من يد مدير مكتب الوزير بلهفة، نقل بصره مرات بين الجملة القاتلة وبين الرجل الواقف أمامه يتأمل انفعالاته بلؤم غير خاف. قبل أن يستوعب ما يجري، رأى كفه مبسوطة أمامه تتلاعب أصابعها التخينة والقصيرة والمبتلعة أظافرها تحت جلدها تأمره تسليم مفاتيح العهدة.

كان الرجل يتمتم بكلام غير واضح، لكن من السهل تخمين معناه ومغزاه في مناسبة مثل هذه، ومن رجل ناصبه العداة سنوات طويلة دون أن يتوصلا لصيغة معقولة للتعامل فيما بينهما.

إنسان بهذا القدر من الخسة واللؤم، ما كان ليصدق بأن صمت هذا المراسل المتعب من الحياة بلا أبعاد مرحلية قادمة أو ماضية. كان يجزم وعلى مسمع منه، أن وراء صمته صلفاً وتجبراً ونوايا خبيثة وخبيثة، وما هو إلا بانتظار فرصة لينقض على غايته ويفاجئ الجميع،

ثم ينهي كلامه قائلاً: "بالله عليكم، هل هذا مظهر مراسل، إن في الأمر سرّاً خطيراً".

ما زال واقفاً يتأمله وقد أطبق كفه على المفاتيح وكأنه أطبق على سر أسرار الكون. قال بشماتة، وابتسامته الصفراء تزداد اتساعاً بصوت واضح "يا لك من ثعلب ماكر، لقد خدعت الجميع إلا أنا".

لن يأبه لهم، يعترف أن فقدانه وظيفته أمر بالغ الأهمية لكنه في المقابل سيحرز بعض الفوائد، أهمها أنه سيتحرر، بل هو قد شعر في هذه اللحظة بالذات بالحرية، التحرر من تبعات كثيرة جرّها على نفسه وقبل بها من أجل العودة مرة أخرى إلى عالم الناس.

لن يأبه لشيء، ترك المكان بخطوات واسعة، كانت كل خطوة تبعده عن باب الوزير كانت تقربه من شخصيته الحقيقية التي وأدها في عمقه وأوهم الجميع سنوات طويلة أنها سحقت تحت التعذيب. في تلك اللحظة نسي كل الاحتياطات التي يتخذها عادة أثناء دوامه الرسمي في خدمة الوزير ليبقى في نظر الجميع إنساناً مسلوب الشخصية وهذا هو ثمن تلك الوظيفة المتواضعة.

هي ليست متواضعة على شخص عاش معاناته، فالقليل خير من لا شيء، لقد فرح بها في حينها أيما فرح، أنقذته من التردّي إلى حافة الجنون بعد سنوات السجن الطويلة أوصلته إلى اليأس، استسلم ونهائياً لطاحونة التعذيب التي صلبوه عليها، فصمت وهدأ ورضي، كف عنهم خيره وشره.

مالذي جرى، هل افترض سره؟ عشر سنوات مرت، ما من أحد استطاع أن يعرف الحقيقة المختبئة خلف جدران عقله، بأنه إنسان سوي يتمتع بكامل قواه العقلية، حقيقة لم يقلها إلا لقلّة ممن حوله بعد وقت طويل، بعد أن اطمئن بأن زبانية السوء قد نسوه وإلى الأبد. أخبر زوجته أولاً، ثم تجراً وأخبر بعض الأصدقاء المقربين جداً، فقد كره معاملتهم له برأفة وشفقة.

أخفى الحقيقة بمهارة من ذاق وبالها سنوات، اعتقد في بداية استسلامه للقدر الصعب أنها دملت داخل جسده مع التئام الجروح، أو بين شروخ الروح. ها هي تطل على حياته من جديد، وسيدفع ثمنها من جديد أيضاً، لكن ما الثمن هذه المرة؟

غادر الوزارة إلى البيت في موعده المحدد، تسوسه أفكاره نحو زمن مضى. تداعت الأحداث في مخيلته ففرح، إذن فهو لم ينس، ولن ينسى. أيام السجن وعذابه والغربة والوحدة والقسوة ما زالت تعيش معه كأنها جزء من نسيج جلده. عرف لماذا عاش معذباً أمام كل حدث كبير أو صغير، يخصه أو يخص أحداً ممن حوله، إنه الخوف الذي سرعان ما يتداعى ويأكل أيامه.

توقيفه اليوم عن عمله لأسباب يعرفها جيداً مصيبة جديدة، لكن ما هو فاعل الآن؟ سيخبر زوجته وأصدقائه، لا بل من الأفضل ألا يخبر أحداً، لكن الأمر خطير، لن يتركوه هذه المرة، بل يجزم أن العقاب سيكون صارماً وقاطعاً. هل تصل بهم إلى درجة تصفيته؟ لم لا؟ ألم

يسمع بأذنيه هذه الكلمة مراراً حين يهدد أحد ما بمعرفته أبسط الأسرار وجود هؤلاء الكبار؟ ألم يحمل بيديه مراراً قرار التصفية الصادرة من مكتب الوزير بصفته مراسلاً إلى الجهات المختصة بالتنفيذ؟ ألم ير بأمر عينيه كيف يتم التنفيذ فوراً دون إبطاء؟

لقد نجا من بين برائتهم بقدره قادر في المرة السابقة، أطلق سراحه من سجنه بعد أن ساءت حالته النفسية بشكل واضح، كره الحياة، كره أمسه ويومه. حين لفتت حالته اهتمام المسؤولين عاد شيء من الأمل يدق صدره فاستغرق في حالة الذهول، غيب نفسه، بدا مسلوب الإرادة شارداً العقل، لكنه لم يصل إلى حد التكهن بأنها ورقته الرابعة.

فوجئ بتقرير من طبيب السجن قد وجه إلى القيمين على إدارة السجن يقول فيه: "أن هذا النزير المدعو أحمد رضوان مصاب بلوثة في عقله، لم يعد ينفع أو يضر. منذ شهور طويلة وهو شارداً الذهن، قليل الشهية للطعام، لا يشارك زملاء العنبر بحديث أو سلام أو كلام، منطو على نفسه لا يسأل ولا يجيب على من يسأله بغير هز رأسه بالموافقة، مهما كان الأمر أو الطلب".

ثم أتبعه بتقرير آخر قال فيه: "لقد ساء الأمر، بل إنه في كل يوم يصبح أسوأ. رأيت أنه أمس أضحوكة الجميع، يمازحه أحدهم بقوله "لقد حكموا عليك بالموت شنقاً، موافق؟" فيهز رأسه بالإيجاب. يسخر آخر "أفضل الموت تحت نعال الحرس؟" يهز رأسه. حتى طعامه، إذا سئل:

أيريده؟ يوافق، وإذا أخذوه من أمامه وألقوه في القمامة وحرموه منه، لا يعترض، ليس من فائدة من بقاءه هنا ولا من تعذيبه، إنه ميت حي".

حين استدعوه وأطلعوه على التقرير لم يكن يعرف بأنه المقصود بهذا الكلام، استمرت البلاهة مسيطرة على تعابير وجهه، لكن حين علم بأنهم أزمعوا إطلاق سراحه، كادت فرحته العظيمة أن تكشفه، تماسك وبقي ساهماً متجهماً. ترك نفسه تماماً لمأمور السجن وهو يسحبه من يده عابراً به ساحات السجن الطويلة، زائغ العينين والوعي، مطلق شعر اللحية والرأس. بدا فعلاً كمتعته لم يعد له غاية ما من دنياه.

دخلاً ممراً طويلاً، ثم توقفاً أمام باب غرفة مدير عام السجن، أجلسه على مقعد قريب ودخل الغرفة، ما لبث أن عاد واصطحبه لمقابلة المدير الذي سأله بعض الأسئلة فأجاب بهدوء لكن دون حماسة تذكر، فزف له البشرى قائلاً:

- ستكون مراسل الوزير الخاص.

هز رأسه ولاحظت ابتسامة شاحبة على محياه الذابل من عتمة الغرف التي تنتقل بينها، سمعه يقول:

- شاغل هذه الوظيفة يسير وفق منهاج الآلة، يغيب عقله وتفكيره تماماً مثلما أنت عليه الآن، يصبح موجوداً وغير موجود. النقم تتحول أحياناً إلى نعم وميزة. ألا توافقني؟

لم يعن كثيراً بالرد بل انطلق خارجاً من حضرته وكأنه يفر من سنوات عمره الماضية التي عاشها بينهم في بؤس. في الهواء الطلق

يمشي متجهاً إلى بيته، تتبدل قسما ت وجهه تبعاً للخواطر التي ترد على رأسه، يتخفف حين يتذكر بأنه حر طليق، فيعجل في سيره، أو يروح تحت هم ثقيل فتتقل خطواته.

خرج من حمى التنور سهل الانقياد، يريدونه ألا يرى فليكن، ألا يسمع فليكن، ألا يتكلم، ها هو صامت أبدي. صار يقتل أي فكرة تراوده، أي سؤال يطرأ على ذهنه أو يسأله سائل. لكن اليوم.. أه.. ماذا عن اليوم؟ مرارة جديدة، حصار جديد، ضيق جديد. بعد المرة الأولى حبس نفسه ضمن دائرة ضيقة كادت تسحقه، خرج منها إلى المقهى القريب من بيته حيث الازدحام والضجيج.

دخل ضمن نظام حياتي جديد، في الصباح يقوم بواجبه الوظيفي بشكل ميكانيكي، يعود إلى منزله وقت الغداء، يتناول نصيبه بصمت، يخذ إلى قيلولة صغيرة، وفي تمام الساعة السادسة مساء يكون على أهبة الاستعداد للذهاب إلى المقهى والجلوس بين شلة من أصحابه القدامى والمستجدين، هكذا صار نظام حياته، وهكذا يجب أن يبقى.

كان يشعر وهو بينهم بأن قلقه يتبدد، يتحرر جسده ويغمره ارتياح، شيء واحد كان ينغص عليه هذا سكونه النفسي الذي يغمره، مشاعر جميع من حوله التي تتدفق عطفاً وليناً تقديراً للحالة التي يبدو عليها، حاول تقبلها رغم عنفوان نفسه العسكرية الأبية، لكن بمرور الوقت صارت تتغلب طبيعته المكتومة في سره على الوضع الذي التزم به، أحياناً يخرج من عزلته الاختيارية، يشارك ويناقش، وحين تنبهه نظرات

الفضول أو الشك في عيون من حوله ينسحب ببساطة ويعود من جديد إلى قوقعته. تعب أخيراً من تلك اللعبة فباح لزوجته ومن ثم إلى صديقي عمره بالحقيقة.

لم يكن في يوم من الأيام متزمتاً بقدر ما كان يحاول التعايش بين الواقع المؤلم وبين ما يحلم بتحقيقه، عاش مثالياً في زمن صارت القيم فيه من العيوب التي يوارئها المرء خجلاً متمنياً الخلاص منها. لا يدعي الآن أنه ما زال معجباً بالقيم بقدر ما يرثي لها، لم يتمسك بها عمداً بقدر ما استعبدته وعذبته. حين صار الجميع يلعب على المكشوف ووضح بأن لاشيء له صلة بالأصل والثوابت، صار يحاول أن يفتح لنفسه آفاقاً جديدة في عالم عاش يجهره، جهل الراض لا جهل الغشيم.

صار يرحب بالتغيير بل ويتمناه عاصفاً، يقتلعه من الجذور، ويفسد طبيعته، يخلخل نظامه الداخلي، يتناسى نشأته الصارمة، وحياته العسكرية، وينعم بجراة الجسور بدل جرة المقاتل التي تودي بصاحبها إلى الموت أو السجون، ويحاكمه هناك قاض وسجان وجلاذ، وكلهم شخص واحد.

لم يخبر زوجته بإعفائه من عمله، استيقظ من القيلولة كعادته ثم غادر البيت متوجهاً إلى المقهى في موعده المسائي الثابت، متخلياً كالعادة عن كل ما له صلة بذلك الإنسان الذي كانه وانسلخ عنه. وجه زوجته آخر صورة تتزاح من خياله بابتسامتها الطفولية، لم يستطع الزمن، ولا المأساة التي عاشها معاً أن تغيرها، كانت وما زالت تقايسه

بها مقابل تنفيذ رغباتها سواء جاءت الرغبة على شكل طلبات خاصة بها، أو جاءت على صيغة أمر بأن يحسن السير والسلوك. كان يعدها مؤكداً:

- سأعود إليك تماماً كما تريد بل وأكثر، يبدو أن الأمر قد حسم فما عليك الآن غير الانتظار، سأنتهي من التخلص من أحمد رضوان القديم المتخلف عن الركب، وألقيه هناك في القبو مع كل مخلفات أسرتي. المسألة أصبحت مسألة وقت، قد يطول أو يقصر، أو أموت دونه. صحيح بأنني أجد صعوبة بالغة في تغيير ما ألفته، لكني سأصل، وسترين.

- لكن من قال لك إنني سأقبلك بمثل هذا التصور الجديد؟ هكذا كانت ترد بعنف يدهشه ولا يصدقها، فيتغاضى كما تعود حيث كان، ويعود يمازحها:

- ستقبليني.. بل وستكتنين بي قصائد مدح مطولة، حين تعم الخيرات بيتنا، حصيلة شهر تعادل حصيلة سنة كاملة. ما رأيك أليس عرضاً مغرياً؟

كانت تصمت، كم كره صمتها، خشي أن يكون علامة قبول، لكنه استدرك استنكاره واعتبرها إشارة على الطريق الجديد. حين بدأ موسم العطاء، وافق على المقايضة وتغيير نهج حياته، وقبض أول ثمن ليس من حقه، ثمن شيء آخر لن يبوح به، استراحت وأراحت. لكن للأسف

فاتها أن تلحظ ما كانت تتهمه به، أصبح أفاقاً وأنائياً وكذباً، وكارهاً لها
كما كانت تدعي في فترة شروده وعذابه.

اليوم..حين غادر البيت في موعده المسائي، ترك زوجته تتشج في
بكاء مرير، أحست بفزعه الذي يغلي في جوفه، فأفشل محاولاتها
للوصول إلى علتة. آخر ما سمعه أنها لم تعد تطيق هذه العيشة المتعبة،
وأنة سيعود ذات يوم من مقهاه الذي استلبه منها فلن يجدها، هددته كثيراً
بمثل هذا ورغم أنها لم تنفذ إلا أنه مدرك بأنها ستفعلها ذات يوم.

سار بتردد بضع خطوات على قدميه عابراً الشارع الفرعي الذي يقع
فيه منزله، استشعر خطراً ما يتربص به، تجلد ولم يلتفت رغم أن نبضات
قلبه انتقلت من صدره إلى أذنيه مثل ناقوس الخطر، وقع خطواته الثابتة
على الرصيف يتردد صداها في جنبات الشارع الهادئ في هذا الغروب،
كانت تأتيه كصوت نعي حزين. عجل خطاه حتى وصل إلى الشارع
العام ، اندمج وسط الجمع المتحرك بحرية وحيوية، عاد الهدوء إلى
نفسه، وتناسى الخطر.

شغل نفسه بالطريق والجو المنعش مثل أي خال من الهموم، لم
يفته التهكم على نساء الأرض كلهن، ناقصات عقل ودين، آه لو تسمعه
زوجته وهو يردد هذا القول، الله وحده يعلم النتائج، ربما يعطيها الدافع
لتنفذ تهديدها فوراً. على كل حال معظمهن يتناسين جوهر الأشياء،
ويمارسن سلطات أنثوية يعرفن جيداً أنه من الصعب تجاهلها، لكنهن
يتملصن حين تقع الواقعة "ويقع الفأس بالرأس".

مشى متمهلاً، لم يتوصل لقراره بعد، هل سيخبر أصدقاءه عما جرى اليوم؟ معنى ذلك أن يفتح كل الأبواب المغلقة دونهم، لا يجب أن يعرفوا. لا، من الأنسب أن يعرفوا. يجب أن يعدهم لما هو قادم من أيام، فقد يحصل له مكروه.

لكي يتغلب على شعوره المأتمى الذي عاوده أخذ يصفر لحناً شائعاً محاولاً إتقانه، يتطلع إلى صورته المعكوسة على زجاج نوافذ السيارات المارة أو الواقفة، الفخمة والعادية، النظيفة والقذرة. توقف تماماً أمام إحدى واجهات المخازن الكبيرة الكثيرة، طفت على شفثيه ابتسامة تهكم لصورته المعكوسة أمامه. كم مضى من العمر حتى تألف مع شخصيته الجديدة وأصبح يعرفها حال وقوع نظره عليها؟

دس يديه في جيوب البنطال، ارتفعت سترته على الجانبين، شكله الفوضوي أعطاه مظهراً شبابياً مرحاً، منسجماً مع اللحن الخفيف الذي ما زال عالقاً بشفثيه، وهو بحد ذاته يناقض اتزان مرحلة الكهولة التي داهمته مبكرة في السجن وتجاهلها، أطلق العنان لعبث يلهو برأسه، نظرتة سريعة وشاملة، عابثة وجسورة، تفحصت الناس والأشياء بدقة.

في اللحظة نبتت حكمة جديدة في تفكيره المهووس بالنظريات التي تحكم العالم، لن يحاول بعد اليوم حمايتها من عبث العابثين الذين يلوون عنقها لتتناسب ومصالحهم، عليه منذ الآن تدجينها وتحديث صياغتها لينال رضا هؤلاء الغاضبين عليه وعليها. مرحى لك، هكذا، يمكنك

الدخول إلى المعترك بسلاح ذي حدين، ماذا أفاد التمسك بنظريات عتيقة وتطبيقها بلا تنازل.

تمسك بها ذات ليلة شتوية ثلجية كمتعقد وإيمان، وحين جنح بها نحو التنفيذ خسر الكثير. كان في تلك الأيام مشغول البال بتناقض النظريات الأساسية بين السياسيين والعسكريين. يومها كان برتبة عقيد، لكنه لم ينخرط في الطاعة إلى درجة العمى، ملاً الثكنات بتساؤلاته بصوت عال، أمام أصحابه الضباط وكثير من جنده: أليس الخط المستقيم أقرب الطرق بين نقطتين؟ وعندما رأى الإيجاب في عيون من حوله سأل بجساسة.. إنن لماذا يفشلها السياسيون عمداً عند التطبيق؟ لماذا لم يتيحوا لنا فرصة الأخذ بها وقت التنفيذ؟ لماذا لم يكلفوا أنفسهم عناء شرح مسوغات تحييتنا عن حمايتها وإسقاطها بجرة قلم؟ لماذا لم يتجرأ أحد منا ويطالب بالتوضيح بدل أن نقبل بخنوع مقولة أن علينا الطاعة أولاً والطاعة ثانياً وعاشراً ثم نعترض؟

اخترق صمتهم بحماسة تهكمية: لا بأس سأحاول مستقبلاً الاستعانة بكل مستجدات العصر الفكرية والمنهجية، العلمية والفلسفية، لأصل إلى التوازن المطلوب بحيث لا نقصد النظرية أهميتها عند التطبيق. هل في هذا الكلام شيئاً من العصيان أو إثارة الفتن؟ لا أعرف. وقف أمام واجهة أحد المحلات الكبيرة، تملى المرأة التي تتصدرها، رأى انعكاس صورته بالحجم الطبيعي بوضوح، كذلك انعكاس حركة المارة الدووية في غدوهم ورواحهم. انحنى بطريقة مسرحية قائلاً: كما

ترون أيها السادة إنني أسوأ أنموذج طبق تلك النظرية اللعينة لربع قرن بالتمام والكمال. استدرك قائلاً: أنا جدّ آسف، العكس هو الأصح، إنني أحسن أنموذج بعد التخلي عنها. شعر بغصّة في حلقة فهمس لنفسه مواسياً: كان لا بد من التغيير ..

اندرس بهدوء بين رواد المقهى، توجه مباشرة إلى ركنه المعهود، يمين المدخل الزجاجي العريض، لم تفته عبثية عملية التنظيف الدؤوب لعمال المقهى لتلميعه، كان كما رآه وعرفه تلك السنوات كلها، لوحة تشريفية شفافة، تحمل بصمات أصابع الداخلين والخارجين طوال النهار. جلس متكئاً بمرفقيه إلى قبضتي الكرسي، ملقياً بثقله عليه، مسنداً ظهره للحائط. انبسط المكان أمام ناظره، انشغل بمراقبة الوجوه، لا تخفى عليه شاردة ولا واردة. من هذه الزاوية الاستراتيجية، والتي لم تتغير منذ سنوات، يعيش حالة وجدانية، يطلق خياله عالياً وبعيداً، يتشبث به حتى يهوي إلى الواقع فجأة على صوت أول القادمين من الأصحاب.

بدأ كالعادة يسرد لنفسه أحاديثه إياها ليلهيها عما يشغلها، تصله أصوات متقطعة أو مغممة أو واضحة، لا يصله جديد، كالعادة، لا يشغل رواد المقهى أمور عامة، أو هامة، إلا في حالة حدوث أمر غير عادي أو بالغ الخطورة، حدث ذلك بضع مرات على فترات متباعدة خلال الأعوام المنصرمة.

الأحاديث العادية ساخرة لاذعة وسخيفة، أصابع متمرسية تخلط أوراق اللعب، وأصابع تفوقها مهارة تسرقها معظم الأحيان، صوت

أحجار الدومينو تفرغ أو تجمّع، وصوت أحجار طاولة الزهر يرتطم بعضها ببعض، أو بالخشب الأملس اللامع، صراخ الغالب وكذلك المغلوب، وصوت طالب بالمطلوب.

ما الذي رماه إلى مثل هذه الحلبة من الصراع الغث؟ ليس من رابط بينه وبين ناسها ولا بما يجري بداخلها. اعتقد يوم أخذ القرار بأنها مقر الناس البسطاء الذين أحبهم واحترمهم ودافع عنهم، لذلك أمل ان يجد عندهم العزاء والسوى لما عاش من أهوال. ليس الأمر هكذا، تعشم بإراحة عقله.

الدخول إلى ذلك المعترك بسيط وسهل يمثل له الجميع، عرف سائد هنا مقبول بل ومطلوب، لا تفكر.. دخن الشيشة.. اشرب.. وسلطن نفسك بأن تكون فرداً في مجتمع يحاول أن يبدو خالي البال ولو إلى حين. كل فرد هنا يسعى ليسرق لحظة من الفرح المفقود في نفسه، أو في بيته، أو في عمله. يسعد لنومة عقله، لتوقفه عن التفكير، ليتناسى مرارة الفشل، فيتخطى معوقاته الداخلية والخارجية بشجاعة نادرة، يترك نفسه على توهجها عليها تحمله إلى حواف السعادة.

عاودته حالة الهذيان التي يحاول الخلاص منها، كم هم مضللون هؤلاء المطحونين تحت عجلات الحياة التي لا ترحم، مصيرهم الإنساني غامض، مهما نشطت عقولهم ماذا ستفعل في الوجدان الهامد. حرق بهم من جديد، مازالوا يتابعون حلقات الدخان بذهول، تطفو في عيونهم نظرات ممسوحة، مثقلة بجهل وغباء. لا.. لن يهتمهم بالغباء، إنه ليس

أكثر من تعبير استياء مكتوم لإجبارهم على إجهاض أفكارهم وأحلامهم بكامل إرادتهم، حينئذ تصبح الأشياء كلها سواء، حتى النجاح والإخفاق. ذات يوم وصل إلى مثل هذا الحال، ألم يعيش ويقبل؟.

شعر الجميع بالخيبة حين هلّوا لقدمه كالعادة فلم يستجب، كان يشجعهم على ذلك، بل لم يغير المكان بعد أن نزلت عليه النعمة حفاظاً على تلك الضجة التي يفتعلونها حوله فتدغدغ غروره، قد ينعم على بعضهم بتقديم المشاريب، أو يتنازل ويشارك أحداً لعب الورق أو طولة زهر، لكنه اليوم في واد آخر، من أين لهم أن يعلموا كيف يفكر من يشعر بدنو أجله؟

سكت الجميع احتراماً لسهومه، لكن العيون ما زالت تحدد به بفضل قلق. بدا وسطهم بأناقته المنتقاة بعناية كأنه أتى لحفل وداع أو لحفل تأبين ميت. علق صديقه ممدوح، أول الحاضرين من المجموعة، ممازحاً:

- ما هذه الأناقة الرائعة اليوم، يبدو أن زوجتك تراجعت عن اتهاماتها ومنحتك البراءة من دم الخيانة.

قال بسخرية مريرة:

- إنها تعتقد أنني لا أخدعها. بينما كنت في السابق أتعمد إهمال مظهري لأغرق في الخيانة حتى الأذنين.

رفع الصديق حاجبيه دهشاً، أطلق ضحكة عريضة أدارت رؤوس الجالسين ناحيتهما، قائلاً وسط ضحكاته المنقطعة:

- إذن! لقد تغيرت ثوابتك التي كثيراً ما صدعت بها رؤوسنا.

- وأمنت بالمتغيرات التي هي سياسة الحاضر الثابتة.

قطع اتصال الحديث وصول سالم صديق آخر من شلتهم، فجأة وجده أمامهم بينما في العادة تسبقه موجة صخب ومزاح مع كل من يقابله، سحب كرسيّاً مقابلاً لأحمد، وألقى نفسه عليه، كاد الكرسي أن يهوي بصاحبه وبقي يئن مع كل حركة من حركات سالم العصبية مدة جلوسه، اقترب سالم برأسه من أحمد ماداً جسده متخطياً المسافة بينهما وهمس:

- هل رأيت أثناء مجيئك شيئاً غير عادي في هذا الشارع. طيور

الرخ عادت من جديد تحوم حولك، هل ارتكبت حماقة ما اليوم.

قطب أحمد جبينه منصتاً ومنتظراً، فهم مغزى كلامه، ومع ذلك تلقاها ببساطة كأنه يسمع إحدى نكاته، حث سالم على الاستمرار باستفزازة قائلاً:

- طيور الرخ؟؟ انقضت منذ زمن طويل يا رجل، لا شك أنك

تمزح.

ضرب سالم بيده على المنضدة الحديدية أمامه، أوقع بعض

الأكواب، غلب صوت تكسرها على أصواتهم، اقترب صاحب المقهى بهدوء حذر وقال:

- أرجوكم المحافظة على الهدوء، لا أحب هذا الهرج الذي تسببونه

بأحاديثكم الصاخبة.

قال أحمد بصوت خفيض ملتاغ:

- ما الأمر هل نحن في كتاب؟ كأنك تريدنا أن نترك المكان، هذا أسلوب استفزازي جديد علينا، ليس من عادتك أن تضايقنا بكلام مثل هذا
و...

رد الرجل وهو يبتعد:

- افهمها كما تشاء.

أرجع أحمد كرسيه المتقل بحمله وحمل همومه حتى التصق بالحائط، وضع ساقاً فوق الأخرى، أشعل لفافة تبغ وسحب نفساً عميقاً، غاص طويلاً في صدره قبل أن ينفثه دخاناً كثيفاً، اغرورقت عيناه بالدموع، أطبق جفنيه برهة ثم عاد يتفرس بالوجوه القريبة والبعيدة، لم تفته الوجوه الغربية المتحفزة من حوله محدقة به.

أصرّ على الصمت، لكن إلى متى؟ الحال مستمر، ها هم يضعونه تحت ضغوط نفسية، يريدونه أن يخرج عن طوره وهدوئه، إلى أين يدفعون به؟ كيف له أن يتجاهل التهديد الذي كان يطل من عيني الوزير الماكرة بكل وضوح، مع أن اللسان كان يخاطب المراسل أحمد المسكين المعتوه:

- أعرف يا أحمد بأنك فتحت الرسالة بطريق الخطأ، وكان من الممكن أن أسامحك حتى ولو فتحت أكثر رسائلي خصوصية فأنا أثق بك جداً. لكنها رسالة ليست لنا، جاءت هنا بطريق الخطأ. لا يجب أن

يعرف أحد أنها جاءت أو أن أحداً منا اطلع عليها. تذكر لقد كانت
مغفلة، جاءتنا دون اسم. أليس كذلك؟
- بل لقد كان عليها اسمك يا سيدي الوزير.

- قلت لك بأنها رسالة مغفلة دون اسم، والكلام المكتوب بداخلها
غير واضح ولا مفهوم أيضاً. لعلك فهمت الآن أم أفهمك بطريقة أخرى؟
- بل الكلام واضح ومفهوم، كانت موجهة لك، وبنفسي أحضرتها
إليك، وأنت يا سيدي من فتحها وقرأها وحل رموزها. حين قلت أنها
صكوك بنكية ومن جهة مجهولة، لأسباب مجهولة، قررت أن أقدم لك
خدمة يا سيدي فتحريت وعرفت مصدرها وقيمتها وسبب إرسالها لك أنت
بالذات. ومع ذلك اطمئن لن أبوح بالسر، ليس لأنني سأحصل على
شيء منها بل لأنني أقسمت على ذلك، فاعتبر الأمر كأن لم يكن.

- آه.. لقد فهمت، تحريت وعرفت! والآن تساومني..بأي حق أردت
أن تعرف؟ من أنت حتى تبحث ورائي؟ أنت دسياسة عليّ، سنوات وأنا
مخدوع بك وبمن رشحك للقيام بوظيفة مراسل لي. توسمت الخير فيك
حين رأيت صمتك وعدم حشريتك. اخرج الآن ودعني وحدي. بالمناسبة
من الخير لك أن تنسى الموضوع برمته ولا تنسى حصانتي. قد تؤذي
نفسك إذا ثرثرت بكلام سيبقى مجرد افتراء، لأنني أعرف جيداً كيف
أدافع عن نفسي.

تردد أحمد في الكلام لكنه همس لنفسه يؤنبها " مالك ولمثل هذه الأمور، أهي مسؤوليتك أم مسؤولية القيمين على الأمور، يا بخت من نفع واستنفع" سمع سالم خطرات أحمد فاقترب أكثر منه هامساً:

- أخبرني يا صديقي ما الأمر، لا بد وأنت قمت بعمل كبير كالسابق فأطلقوا كلابهم ضدك.

- هل أنت خائف؟

- أبداً .. لكن أريد أن أفهم. في المرة الأولى كنت واحداً من المستفيدين من معصيتك في تنفيذ قرارهم بالقبض على بعض الوطنيين، يومها ألغيت القرار، مزقته أخفيت نسخه، تحملت وحدك النتيجة، بينما فررنا بجلودنا بعد أن نبهتنا للخطر. لن نتركك تتحمل الأمر وحدك هذه المرة أيضاً، أخبرني ما الأمر أرجوك.

لم يدعه أحمد يكمل، أشاح بيده لإسكاته، ثم تبسم بمرارة، ماذا سيقول.. شتان ما بين المعصية الأولى وهذه. أشعل لفافة أخرى قبل أن يطفئ الأولى وقال:

- لم تتعلم بعد، أنه ليس كل ما يعرف يقال يا صاحبي.. تذكر كم اقلقتنا بثقب الأوزون عاميين كاملين، كنت تقول إنه غير طبيعة الفصول، ثم عدت بالحماس ذاته تؤكد أنها إشاعة من إحدى الشركات المنافسة على تصنيع المبيدات والمواد الكيميائية المضغوطة.

لم يعجب سالم أن يناهى أحمد بالحديث عن موضوع مختلف وبعيد، فقال بحماسة من ازداد خوفه وقلقه من شيء مجهول يعيشه صديقه:

- أحمد أكرر رجائي أن تخبرني ما تعرف، من الخطأ أن تسكت.
كرر ممدوح جملة سالم بطريقة فكاهية "حقاً من الخطأ أن تسكت"
أراد أن يوهم الملتفتين ناحيتهم أن الأمر مزاح بين صديقين، كان الجميع
يهم بالتدخل بالحوار الجاري شأنهم دائماً، جاءه صوت أحمد مستقراً
بسخرية:

- ما هو هذا الشيء الذي من الخطأ السكوت عليه يا ممدوح؟
أدرك ممدوح أن أحمد يجرجره إلى فخ كالعادة حين يريد أن يكشف
تسرعه في الحديث دون روية، فقال بحماسة:
- أقصد ما قاله سالم لك، قله يا سالم مرة أخرى إن كنت تعرفه أم
أنك بدورك لا تعلم شيئاً؟

رغم المشهد التمثيلي الهزلي، لم يفقد سالم حماسه ولا اهتمامه،
أجال نظره فيما حوله، رأى صاحب المقهى يغلق النوافذ وبعض الأبواب
بإحكام. راقبه وهو يخرج مفزوعاً ويدخل مهموماً مشغول البال، قال له
بصوت عال:

- ما معنى هذا يا أبا العبد، هل تقوم بعملية حصار لحساب
بعض أكلة لحوم البشر.

وقف أبو العبد في منتصف المكان فبدا للجميع كأنه جثة محنطة،
رعب حقيقي انتزع روحه من جسده بعد خروجه في المرة الأخيرة من
المقهى وعودته إليه، كان مسلوب الإرادة قليل الحيلة. تدخل أحد
الحاضرين بالحديث بكلام لا معنى له، بينما عيناه زائغتان تبثتان عن

غير المرغوب فيهم من الموجودين. التقوا حول أحمد، بدأت تتسرب إلى المكان بعض روائح غريبة نفاذة. تابع أحمد الجميع معلقاً بصمت، ليس هناك أجمل من الانفعالات الإنسانية حين تتألق على الوجوه، هي بلا شك هوية الوجدان الحقيقية.

تتضاءل التطلعات والأحلام مع زحف الخوف وإيثار السلامة. سنبقى نعيش حالة نضال دائمة، بعض منا يناضل بحثاً عن لقمة العيش بينما البعض الآخر يجير نضالهم لصالحه من أجل التربع على عرش من عروش القوى. آه.. إنه قانون الحياة. أسألوا المجرب، البداية خطوة، ثم تتتابع الخطوات، حين نسير وفق نهج مرسوم معصوبي العيون نقصر المسافة بينهم وبين أهدافهم، ظاهرها نبيل وباطنها خسة وحقارة، ونحن كالعادة ننخدع بمن يعرف كيف يفكر، كيف يسكب الكلام المعسول في الأذان المتهدلة.

ما هو التصرف السليم الآن، في هذه اللحظة، اللحظة الأخيرة. كرم عظيم أن أمهلوه حتى يستعيد نفسه الضائعة. العقاب في هذه المرة على ما يعتقد الحكم بالموت، يظنون بأنه أقسى من السجن. دون إرادة ارتفع صوته، فارت براكين صدره الخامة سنوات وسنوات:

- هل تعرفون أين تكمن المشكلة؟ إنها في النفوس الشرهة التي لم تعد تكتفي بمقولة "الشاطر يعرف من أين تؤكل الكتف" أرادوا الذبيحة كلها، لا يريدون أي مشاركة. القانون تحت ظلهم مرن لزج، رحيم بهم وحازم ضد غيرهم. جمعيات الرفق بالحيوان ترى أن الحيوان أحق

بالرحمة من الإنسان، يتظاهرون ضد من يسيء معاملتها. هناك من يمارسون الظلم كنزعة في النفس، يرون أنه من الأسهل ممارسته على بني البشر، إذ ليس هناك جمعيات تطالب لهم بالرحمة. وذوو القوى قرروا ذبحنا بأي وسيلة كانت ضامنين لأنفسهم السلامة التامة أمام القانون العام.

سكت الجميع.. الخوف مسيطر على كل جزء فيهم، يغرقون في بحر الغموض، متأكدون أن شيئاً ما يتربص حولهم، بهم أو بأحمد وحده أو بمن معه، لا يعرفون بالضبط حقيقة ما يجري. حماسته أضفت على العيون توهجاً وعلى الشفاه ابتسامات مرّة. أحس بأن ما به ليس سخطاً مؤقتاً من أجل موقف، بل كان أكبر من ذلك بكثير، لقد فار التتور مرة أخرى في داخل نفسه بعد همود، بعد أن ألغي بقرار سام منذ زمن اللامعقول ففقد نفسه، وها هي تعود إليه أو يعود إليها مجدداً. جاء صوت سالم يسأله هامساً:

- أحمد اصدقني القول بالله عليك، هل عدت لدراسة النظريات

وإعادة صياغتها مرة أخرى؟

ولم لا..؟ فكر أحمد.. خرق النظريات إلى درجة التحدي أصبحت من ضمن المفاهيم العامة، حتى هو نفسه كم من النظريات خرقها ليرضي من حوله. عاش في ببحوحة مع أسرته، ابتسمت الزوجة وتنعم الأولاد، نعم لقد خرقها وتنعم، لكنه الآن يرى أن خرقها وإن آمن له رغد

العيش، انتزع منه إنسانيته، فهو ليس أكثر من كلب ضال، اهتدى إليه من يهون حياة الكلاب الأليفة، رعوه وهينوا له في كنفهم رغد العيش.

أعاد سالم طرح السؤال بطريقة لينة:

- يبدو أننا أدمنا يا صديقي تجلياتك العقلانية مع أن كل النتائج

كانت بالنسبة لك ولنا شقاء في شقاء.

- كثيراً ما راهنت على استحالة سقوط النظريات إلا أنها سقطت

بالفعل، وبسقوطها تحطم كل تفكير علمي ومنطقي. بسقوطها هذه المرة بهذا الأسلوب العلني، لم يعد بإمكاننا الدفاع عنها.

- لكن لا بد وأن يبقى من يؤمن بها، من يناضل من أجلها، وإن

سقط بين يدي من لا يرحم، وإن مات دونها.

- بالمقابل سيبقى من يستमित لإسقاطها وتدجيننا. وإن عاش

فاشلاً، مهزوماً داخل نفسه، محسوباً من ذوي الأرقام التي تشتري كل شيء.

- لكنه لن يجد من يرد له اعتباره كإنسان، حتى وإن دفع ثمن ما

يشتره ذهباً خالصاً.

تداعت إلى مخيلة أحمد أفكار مهزومة، ملامح وجوه محمومة

طففت فجأة في رأسه الملتهب، أيام السجن الطويلة دون محاكمة بتهمة

العصيان والتمرد على تنفيذ أوامر صدرت إليه تدعي مصلحة البلد.

رفض القيام بالمهمة، لم تكن في مصلحة البلد بل كانت السبيل إلى

خرابها. ما معنى السطو في غبش الليل على حريات جماعة من أشد أنصار الحرية.

تذكر العمل سنوات مع ذلك السياسي الكبير، الذي كان من أشد الناس حماسة للتغيير وتحديث النظام ورفع الظلم، وقطع دابر اللصوص والمهربين الذين أخلوا باقتصاد البلد. كتب له الرسائل من السجن كلما اتحت له فرصة لإرسالها متسللة بواسطة بعض الحراس، كان يطلب منه بإلحاح أن يتوسط له فقط لإجراء محاكمته، أن يعطى فرصة للدفاع عن نفسه. لم يرد عليه، وأخيراً جاءه الرد مع الوسيط ذاته، كان بضع كلمات لا غير "العسكري ينفذ ثم يعترض".

لم يكن هذا الصرح الشامخ سوى متسلق جديد على أكتاف الشعب، لا يزال يذكر كيف أجبر قدميه على التحرك والعودة إلى الزنزانة إلى الفراغ إلى حياة لم تعد تستحق منه كلمة. فصمت.. وصمت طويلاً.

كان الحوار ما زال متصلاً بين الجميع، زحزحت المناضد وتغيرت أوضاع الكراسي والنقت الوجوه والعيون، الأمر خطير، شعر بالافتتان بتمسكه بضرورة دراسة النظريات من جديد لتغيير سياسة التطبيق، صاح :

- إن ذلك يعني الكثير، يعني أننا لكي نعيش دون رقابة، ودون تعرض لتهم زور، علينا أن نقوم بتنفيذ رغباتهم قبل الاعتراض. فهل علينا أن نعرف بأننا مخدوعون ونقبل؟ وأن نتعرض إلى حرب نفسية في كل لحظة لنصبح مطايا ليحقق أحدهم كسباً مادياً أو معنوياً ونقبل؟ ولن

يخلصنا من تهمة العصيان إلا إعانتته على تنفيذ مآربه ونقبل. أصبحنا شخصاً ممسوخة إنسانياً، ألغينا "لا اللعينة" من قاموسنا بعد أن تعرضنا مراراً إلى إعادة تشكيلنا بعد كل رفض، قدراتهم لا تجارى، وحيلهم لا تنفذ، يعرضوننا إلى ضغوط معروفة أو غير معروفة حتى لا نحيد عن المطلوب. المطلوب بكل بساطة أن نتيح لهم احتواء عقولنا ورغباتنا وإرادتنا.. طبعاً لا أقصد بأننا أكبر من الاحتواء لا سمح الله، ولكن نتمنى عليهم إعطاءنا فرصة لنفكر، ونعدهم بأننا سنفكر كعادتنا بسلبية ونجد لهم الأدلة على حسن نياتهم عند اختراق كل نظرية.

لم ينتظر الجواب.. ولا تمتع بهذا التأييد من الجميع، غادر فجأة، بعد أن همس في أذن صديقه سالم "أوصيك بالولدين وأمهما". صمت الجميع كمن يتوقع فاجعة. اندفع إلى الشارع، غمره دماء غير عادي، ها قد عاد يحتمي بجلده هو، ويحس بتدفق دمه هو.. ولم يصل إلى البيت..

صرع.. لا أحد يعرف كيف، فقد كانت العيون تتابعة قلقه على حياته، سالم وممدوح تبعاه عن بعد، تنفسا الصعداء حيث رأوه يذلف إلى شارع بيته الفرعي بسلام فعادا مطمئنين.

سقط أرضاً في الشارع الفرعي الصغير ذاته قرب منزله، وجدوه ملقى هناك، فجوة في الرأس، بقع دم متخثر عالق بالشعر، خصلة منه مفقودة. بعد البحث والتحري وجدوها عالقة بصدام سيارة بلا شكل معين،

بلا لون مميز، بلا رقم خاص أوعام، مهمة في ركن النفايات، تسير
دون سائق، حركت بالريموت كونترول وصدمته.

الزمن الآخر

أنهى الطبيب الكبير والباحث الفذ عمله، وضع قلمه جانباً، فرك عينيه المتعبتين، أراح ظهره على مسند كرسيه المتحرك، مد ساقية على طولهما تحت مكتبه. انشרכת أساريه، لقد عمل بشكل متواصل مدة ثماني وأربعين ساعة دون نوم أو راحة في تدوين نتائج أبحاثه حول تطوير جينات الإنسان. كانت نتائج تجاربه الأخيرة مبهرة محققة نجاحاً فاق كل توقع. ترك مكانه ووقف، تمطى فارداً جسده الممتوتر من الجهد والترقب، مشى خطوات بطيئة داخل المكان يريض قدميه.

نشطت إحدى الممرضات تساعده على خلع معطفه الأبيض، بينما ناوله أحد معاونين المواد المعقمة لغسل يديه، هرعت ممرضة أخرى وفتحت أمامه باب المعمل بلمح البصر، وأفسحت له الطريق للعبور. فتح باب آخر آلياً فدخل منه إلى غرفة واسعة نظيفة، خالية إلا من منضدة مربعة الشكل عليها مفرش أبيض ودورق ماء وكأس ممتلئ

مغطى بالشاش النظيف، وسرير مغرق في بياض الأغطية النظيفة المعقمة.

استلقى على السرير بإرهاق واضح، احتضنه السرير بحنو بالغ، لم يكن سطحه مستو كما هو مألوف، بل كان به نتوءات وتجاويف آخذة شكل الجسد الإنساني تماماً. سرى الاسترخاء اللطيف بهدوء في أنحاء جسده المتعب، أغمض عينيه، تراجع الجميع بهدوء بينما كان الباب يغلق تلقائياً ببطء شديد، أخذت الأضواء تخفت ثم تطفأ واحدة تلو الأخرى حتى أظلمت الغرفة تماماً.

شعور ممتع بالانتصار يغمره، ها هو وحده أخيراً مع نتائجه المبهرة. "لقد آن الأوان لظهور الإنسان المتكامل الخالي من موروثات الأمراض النفسية والجسدية والعقلية، زمن آخر قادم لا محالة".

جيل جديد مدروس ومحكم، جيل ذكي، صحيح الجسم، معافى من العقد والمعوقات. أي حياة جميلة هادئة مليئة بالصحة والسعادة تنتظرهم؟ بدأ النعاس يداعبه، أرخى جفنيه باستسلام كامل، فجأة تيقظت حواسه مع ورود سؤال في غاية الأهمية، جهد كثيراً كي يبعبه عن فكره طوال سنوات البحث والتقصي وراء إنجاز العظيم. لكن الآن السؤال يلح، يدوي في رأسه فيؤرق نفسه المبتهجة: أي صراع سيبدأ؟

يا إلهي.. ماذا سيفعل الناس بعضهم ببعض؟ مجتمع مثل هذا لا مكان للرحمة ولا للود ولا للإيثار فيه. سيشق الظلم لنفسه طرماً وخنادق، سترفع راياته ويعلو صوت مناصريه بلا موارد وتستر. يقفز سؤال جديد

فيه الكثير من الاتهام لنفسه ولنوازعها: ماذا كان هدفه منذ البداية؟ استعراض قدراته العقلية على الإبداع أم أراد فعل شيء هام للبشرية؟ أقسم بأن سعيه الجاد ذاك ما كان إلا من أجل تطوير البشرية نحو الأفضل، لم يكن ليخطر على باله بأن يعيد للغاية أمجادها.

شعر بجفاف في حلقه، مد يده ليتناول كأس الماء جانب فراشه، لم تصل يده إليه، أعاد المحاولة لم يفلح، عطشه يزداد، يحرق جوفه، تدب العصبية في أوصاله. حاول الوصول إلى الجرس طلباً للمساعدة، أمسك به، ضغط عليه، أصرّ الضغط عليه، لا مجيب. انتبه بأن الجرس نفسه لا يعمل، قطعة معدن صماء باردة لا تتجاوب، ألقاه أرضاً، صرخ لم يسمع صوته، حاول القيام، نزل من السرير سار بضع خطوات إلى الأمام، دهش فقد كانت خطواته تبعده عن الباب، تسحبته للوراء.

سخونة شديدة تلذع قدميه، جلس القرفصاء ليتفحص المكان، من أين أتت هذه الرمال الساخنة، كيف وصل إلى تلك الصحراء المحرقة في منتصف الظهيرة في يوم شديد القيظ. ما هذا؟ يكاد يهده التعب.

حاول زحزحتها، لم يفلح، جوع، تعب، عطش، ولهاث متقطع، لم يستطع أن يحدد المكان ولا الزمان، إذن ليهدأ وليفكر بروية، كيف سيتخلص مما هو فيه، ليرتب الأوليات: الماء أولاً، أي نوع من الطعام ثانياً، بعد ذلك ستأتي الراحة، ويصبح بوسعه التفكير بوضوح. ولكن من أين له بالماء والطعام؟

جلده الجاف مشدود بشكل مؤلم كأنه قد ضاق فجأة، أحسه يتشقق، تلفت حوله، صدمه فراغ التيه، لا نبت لا طائر لا نسمة هواء طرية، فجأة انتصبت أمامه شجرة ضخمة الجذع عتيقة وارفة الظلال، جر نفسه نحوها بصعوبة من يقتلع صخراً من بطن الجبل، أخيراً وصل، احتمى بظلها، لم تحمه، ما زالت حرائقه تشتعل في دمه وفي جلده.

ألغى المنطق، لا يريد تفسيراً لظهور الشجرة هكذا فجأة، على الرغم من يقينه بأنها لم تكن موجودة قبل دقائق. لا يهم، المهم أنها الآن موجودة. أحس بنقط من نداها تتساقط فوق شفثيه واحدة تلو الأخرى، ألغى عقله لا يريد أن يتساءل. طمأن نفسه بأن ما يراه ويعيشه مجرد حلم، حلم غريب، سينتهي حال استيقاظه. حاول التحرك، ألمته المحاولة، لعله يعيش حقيقة. نعم لا بد وأنها حقيقة، فهو رجل لا يحلم، صحيح أن أحداً لم يصدق، ولا حتى أي من أصدقائه الأطباء، لكنه فعلاً لا يحلم. قد يسرح عقله قبل النوم وراء الفكرة التي نام وفكره مشغول بها، لكنه يكون عادة بين نوم ويقظة، يستطيع إيقاف أفكاره متى يريد، عبثاً يحاول الآن.

اقترب أكثر من الشجرة، التصق بها، شعر بالانتعاش، عليه أن يتناسى كل مخاوفه. ألغى ظهره بكل ثقله على جذعها أملاً بالراحة، قبل أن يدركها اهتز الجزع خلفه هزات عنيفة، جزع وفكر بالهرب أو بالتراجع، لكنها كانت أسبق منه وابتلعتة إلى جوفها.

لم يطل انتظاره في رحمها، فقد لفظته بعد حين، أحس اندفاعه من جذعها اندفاع الجنين من رحم أمه. استسلم لشعور غريب غمره، بأنه إنسان جديد، في مكان غريب. أجال النظر فيما حوله، يتحسس الزمان والمكان والبشر، ليس أمامه غير المدى الواسع البعيد، ممتد بقدر إمكانية امتداد بصره على الأرض المنبسطة.

لم تكن الأرض صحراء كما تخيل في أول خطواته نحو هذا العالم المجهول، رآها بساطاً أخضر، تختلط خضرته بأصالة طين الأرض، أحمر خصب يضج بالحياة، في آخر المدى كانت زرقة السماء، شفافة باهتة، تطبق بوهن على حواف الأرض الخضراء بعناق طويل.

تساءل بفزع الخائف: أين أنا؟ قبل أن يستدرك رأى شجرة أخرى وحيدة منتصبة في منتصف هذا المجال الشاسع، كانت أصغر من الأولى التي نبذته منذ ساعة، تقف شامخة على ساقين مثل صبية فاتتة. تبتسم بفرح، في منتصف الجذع يتلاقى الساقان ويمتدان عالياً، ثم يعودان للتفرع إلى أغصان كثيرة وعريضة ومتقاطعة، طويلة ممتدة مثل شوارع مدينة حديثة، نظيفة ومنسقة، مثقلة بحمل نوار أبيض كالطهر بتيه إنساني عجيب. أطربه المنظر، هتف من أعماقه " أه.. لقد قبضت أخيراً على المستقبل".

"لا شك أنها شجرة الحياة، وهذه هي الجنة" سمع نفسه تتحدث بانتصار. البشر كلهم سمعوا عن شجرة الحياة، أو سمعوا تعبيراً ما يصف تلك المعجزة، لكن أن يراها المرء فهذا شيء آخر. أمام هذا

الإعجاز الرباني تفقد النظريات والأيدولوجيات كلها معناها، توقن بأن كثيراً من الحقائق البشرية الموضوعية قابلة للتبدل تماماً بالسهولة ذاتها التي تبدل الأشجار ألوان أوراقها مع توالي الفصول وتقلبات الطقس.

يردد في سره شعاره الخالد بأن التغيير قانون العالم الأزلي، ينشغل الفكر المبهور بما يرى، لقد كان على حق. "أيتها الشجرة الخضراء الياضعة، يا شجرة الحياة الخالدة، كيف السبيل إلى تحقيق حياة خالدة كخلودك" أسكره الحلم بالمجد، ولم لا؟ ألم يخرق النظام؟ ألم يحمل على عاتقه مهمة التغيير بجرأة ودقة؟ لم يترك فرصة للتردد والحيرة فقد كان بصدد مهمة كبيرة لا تحتل أي عاطفة. في المعمل يجبر الباحث على القيام بما هو مطلوب بألية بحتة.

بدأ الناس يتحركون أمامه، بهت، كأنهم دمي، لا تمييز حقيقياً بين واحد وآخر. الشوارع حيث يسرون تنفتح وتمتد، تتقاطع تلتوي ثم تستقيم. تقترب الوجوه وتتباعد. لا يرى إلا وجهاً واحداً يتكرر وليس وجوهاً متعددة، تختال كلها بصحة وجمال ونكاء ورضا، لكن ثمة شيء مفقود منها، أدركه منذ الوهلة الأولى، ذلك هو الحس الإنساني، الحس الحقيقي، كأنهم تماثيل شمعية خارج نبض الحياة.

لم يعيره أي منهم أهمية ما، تقدم نحو رجل يسير بهدوء خلاف الآخرين، سأله بكياسة عن جرعة ماء، أو أن يدلّه على أقرب مكان يمكنه أن يتناول فيه شيئاً من طعام. سأله الرجل ونهم غريب يتراقص في العينين الذكيتين:

- هل أنت غريب هنا؟

- قل لي أولاً أين أنا؟

- أنت في

أسكته صوت قادم من بعيد:

دعه لي، فأنا سأجيبه على سؤاله.

- لن أدعه لك، إنه لي، أنا وجدته قبلك.

ألقى عليه نظرة حادة دون كلام، خطأ للأمام وهو يسحب الرجل الغريب من ذراعه، وقف بعيداً وقد عاد إليه الهدوء، وبصوت خفيض أجاب:

- أنت في مكان جديد، لا تعرفه، لكنك ساهمت في خلق أسباب وجوده. تعرف ساكنيه فرداً فرداً على ما أعتقد، ساهمت بجهد متواصل سنوات طويلة من عمرك لإنجاز أنموذج مختلف من الناس. ها هم، خصصتهم بكثير من المزايا والإيجابيات، فكان لا بد لهم من الزهو بقيمة ذواتهم والانشغال بالافتتان بها.

ضحك جذلاً، نسي الجوع والعطش، وسأل بفضول الباحث:

- كيف تسير الأمور هنا، لا غباء، لا مرض، لا تخلف، لا قبح في الشكل أو في الطباع. أعرف ما ستقول، ستخبرني بأن كل شيء على ما يرام، جميل ومكتمل تماماً.

- مهلاً لا تسأل وتجب. الحياة الطبيعية لا تكن على ما يرام إلا وفق قانونها الأزلي "التفاوت والاختلاف". نعيش ببرود قاتل، لا ننفعل

بما نراه، ولا يثير فضولنا ما نسمع. فنحن نعمل بألية مطلقة، وما ننجزه متقناً مدهشاً بالغاً درجة الكمال، ولا شيء آخر.

- وماذا في ذلك؟

- أقول لك أننا نعيش ونعمل مثلما تعمل الآلات، لا يحس أحدنا

بالآخر.

- لم أكن أطمح إلى تجريد الإنسان من مشاعره تجاه نفسه وتجاه

الآخرين. لم أشأ أن يتحول إلى لا شيء، أردت له التفوق ليرتقي بمجمعه.

- ستقاجاً إذا أخبرتك بأن الفرد كفرد لم يعد مهماً طالما لكل منا

الكفاءة ذاتها. لم يعد هناك مجال للتنافس، يسودنا المنطق، العلم والعمل، كلنا سواسية نعيش الظروف ذاتها. قد يتنافى شيء مثل هذا مع نشأتك وتكوينك، وقد يتعارض مع عقائدك الدينية والجمالية والإنسانية، قد يؤلمك هذا الأسلوب وتراه قاسياً، لكن لا سبيل أمام هذا التفوق الذي تم تكويننا عليه، مع سبق الإصرار، سوى التحول نحو الطريق الحسابي الجديد.

- تعني بأنه لم يعد يثير اهتمامكم أي شيء يتعلق بالفرد كفرد؟.

- نعم.. فنحن نعيش بشكل جماعات وفئات. الحقيقة أن ..

- كفى أرجوك إنك تخيفني. فكرة معاملة الإنسان كجزء من فئة أو

كرقم بين أعداد بشرية ترعبني، إنه عمل غير إنساني.

- لكن كل ما نقوم بإنجازه من أعمال يتم بشكل سريع ودقيق ويحقق الكثير من العدل. على كل حال أراه أكثر دقة، وأنبل غاية، مما فعلته أنت وأمثالك.

- لم أكن أنشد عالماً يصبح كل فرد فيه شرطياً يحرم الآخر حياته الشخصية بشتى الطرق. كنت أسعى إلى تطوير العالم وليس في الردة إلى العصر الحجري.

- عفوك ..دعني أصحح خطأ ورد في كلامك، نحن في العصر الآلي وليس العصر الحجري. ربما تفوقنا عليك يا دكتور، آسف أن أخبرك بأنك رغم ذكائك كله وعلمك العزيز تبدو أمام تفوق آلية حياتنا وذكائها الخارق ساذجاً أو جامداً، قد تفهمنا، وتستطيع التعامل معنا، لكن أنصحك بالأ تفكر بنطاق حالات شخصية بل انظر للأمور بنظرة شمولية.

بالمناسبة. أود أن أخبرك، بأننا أوعزنا إلى مفكر وعالم آخر مشغول البال بتخليد اسمه مثلك، يفكر على طريقتك، فصنّع لنا مجموعة من الناس تملك الصفات التي حيدتها في هذه النخبة، لنعيد التوازن الطبيعي لحياتنا، وقد فعل. سأخذك للفرجة عليهم، إنهم يقومون بكل الأعمال التي تأنف هذه النخبة من ممارستها.

قد يحزنك شيء مثل هذا ولكن إذا فكرت بمنطق لن تحزن، ستجد لنا العذر، كان لا بد من ذلك، كنا بأمس الحاجة لأمثالهم. ظننا بأن المشكلة ستحل حين تمتزج إيجابياتنا مع سلبياتهم، وبذلك نستعيد

شخصيتنا وهويتنا الأصلية، فالإنسان هو الإنسان بخيره وشره، بذكائه
وغفلته

- ثم ماذا؟ هيا أجب أسرع.

- لا أخفي عليك بأننا بقدر استمتاعنا بالتعامل معهم عجزنا عن
التمازج الكامل بسبب نظرتنا الدونية إليهم، هم بلا شك فئة أقل جودة.
أرى في عينك نظرة لوم وأسى، أرجوك لا تتسرع، لا تنسى بأنك جردنا
من كثير من الموروثات التي اعتبرتموها تعيق التطور، كالمشاعر مثلاً،
شيء مثلها كان يجبركم فيما مضى على مثل هذا التجاوز.

- إنها جناية كبرى، لن نكونوا سوى عبيد عند الآخرين المنقحين.

- صدقت..سخرؤا لخدمة هؤلاء الأسياد، لكنك من بدأ التجني.

أطبق عليه جمع من الناس صائحين بأصوات محتجة رافضة
الوضع الجديد. قال أحدهم:

- أيها المدعي اللعين أعدنا لنواميس الحياة الحقيقية.

صوت آخر:

- يا لك من دجال، أفقدتنا هويتنا من أجل رغباتك التي لا يحدها
حدود.

صوت امرأة:

- نريد الحياة بكل أحوالها وتقلباتها.

يرد صوت امرأة أخرى مؤيداً:

- ليس هناك أجمل من أن نعاني ثم نفرح، نشقى ثم نرتاح، نخطئ ونتوب، ماذا فعلت بنا بحق الله؟

كان مؤمناً منذ البداية بمدى جنون فكرته وخطورتها، ومع ذلك تناسى كل شيء وهو يعيش فرحة إنجازه بشكل لا يوصف. لكنه هنا، وبمرور وقت وجيز بين هؤلاء التائهين، أجهضت فرحته، أحس بالضياع، أحس بالحنين والشوق للعودة إلى الفطرة. يعترف أنه قد فقد شعوره العارم بقيمة شخصه، تحول إلى شيء آخر من أشياء الواقع المتاح. صمت، وغرق في معاناة نفسية عاطفية. ألغيت أجمل ما في الإنسان، كلهم ضحايا إنجاز علمي بحث استلبهم جوهر الحياة.

أشار له الرجل الواقف في منتصف الطريق بصمت أن يتقدم، نظر حوله بحذر، تقدم أمامه فتبعه، وقفوا أمام الشجرة، نقر المرشد على جذعها نقرات خاصة، فأجيب من الداخل بنقرات مماثلة، استوقفه ريثما يأتيهما الإذن. سأله بتأن:

- ما معنى هذا؟

قبل أن يجيبه، بدأت الشجرة تتضخم، ثم انفلقت إلى قسمين، تمدد لب جذعها اتسع أصبح قاعة رخامية مضاءة من كل الجهات، مجموعات بشرية تروح وتغدو، تعلق في منتصف القاعة جماعة متراسة خليط من الجنسين، تتوسطهم امرأة، رشقته بنظرات سريعة قاسية، رآها مفعمة بحيوية الشباب والصبا، نظراتها تحمل جدية الحكمة ودهاء ومكر. كانت تجلس على أريكة مصنوعة من أزهار متفتحة

متعددة الألوان كأنه عرش طاووس، حولها بعض نساء ورجال، لهم الصفات ذاتها، نظرات عيونهم تتضح بفضول أكثر من العداء.

التفت إلى مرافقه يريد جواباً على دهشته وحيرته. أجابه بهمس:
- ستري بنفسك، هنا بيت في أمر الغرياء.

جاء الإذن بالتقدم، خيل إليه أنه بعد بضع خطوات سيكون أمامها، لكنه كان واهماً، كان يحكم على الأشياء والتصرفات وتقدير المسافات بعرفه هو، ناسياً بأنه أمام نتاج معمله.

سار عبر أزقة متعرجة تعج بخليط من البشر يكدون في أعمال مرهقة تستنزف عرقهم وطاقتهم. سحبه مرافقه إلى الجهة الأخرى، قلب بصره فيما حوله، هنا وهناك، فتلتقي عيناه بالوجوه المليحة النظيفة المرفهة التي لا تفعل بقدر ما تتفعل لمسراتها ومتعها. ازداد لهاثة، ازداد عطشه وجوعه.

المرأة الجالسة في صدر المكان لم تعره اهتمامها، استمرت في هذرها مع من حولها وإن كانت في حركاتها وكلماتها استعراض الزهو بنفسها وقدراتها أمامه. تملل وتمهل في سيره، لكزه مرافقه قائلاً:

- انتظر.. لن يجدي شيئاً مهما حاولت.

أنصت للحديث، كانت على ما يبدو تروي للجمع حدثاً ما، ثم عَقبت بعد فترة صمت وهي تلحظه بطرفها:

- لا يخبرني أي منكم بأن ما رويته حلاً، فأنا لا أحلم إطلاقاً، لقد رأيته تماماً، كلمته ولمسته، كان من لحم ودم.

ردت واحدة من جلساتها قائلة بصوتها الرفيع:

- لعلها أحلام يقظة.

أشار أحد الرجال نحوه وهو يقول:

- إذا فسرنا ما رأيته حدساً خارقاً، سيكون هذا الغريب العالم هو من رأيته وتكلمت معه، وأغلب الظن بأن ما يحمله في جسده ونفسه وعقله من مخلفات السلف هو الخطر الدايم الذي رأيته ينثره حولك على شكل سحب سوداء تحجب السماء.

قالت ذات الصوت الرفيع:

- إنه لطيف ووديع، لا أرى أي ضرر منه، نحن كثرة وهو واحد، دعوه لي سأجعله يعتاد نمط حياتنا في وقت وجيز.

ثم وجهت الكلام له شخصياً:

- بالمناسبة، عليك أيها السيد أن تلغي الكثير من الأفعال والأقوال التي لم تعد تعني غير مضيعة الوقت الثمين، ستنسى كل ما يمت للخيال بصلة، الفنون بكافة أشكالها، وخاصة أوهم الشعراء والأدباء، وأمثالهم، لا شك أنه سيعهد إليك بعمل ما، سنتوخى أن يناسب قدراتك، لا تنسى بأنك من سلالة غير متكاملة، ثم أنك لن تعمل إلا ما هو مطلوب وبالقدر المطلوب، وحين لا يوكل لك عمل ستنتظر. هل فهمت ما أقول، الفرد هنا يخزن مثل الآلات حين ينتهي عملها بانتظار الحاجة إليها. ضغطة صغيرة على أحد الأزرار، تعلمك بأن الحاجة إليك أزدت، فتقوم بالمطلوب بكفاءة تامة.

رد على ما سمع بتعال ملحوظ:

- مهلاً .. لم هذا الغرور؟ أتعقدون أنكم آخر مطاف العلماء، لا يا سيدتي، الإنسان كون شامل، مازال خاضع للدراسة والبحث والتقيب، لم نكتشف حتى الآن إلا القليل. أنني واحد ممن ساهم في إيجاد نوعكم، أعني الإنسان الحديث، اسمحوا لي بأن أخبركم أنه مازالت في جعبة العلم الكثير، والعلماء لا يكفون عن البحث، وقد يتحدثون قوماً أكثر تفوقاً منكم.

عدلت المرأة الجالسة على الأريكة المتميزة من جلستها، نظرت فيمن حولها تشهدهم على بدء معركتها معه. قالت بصوتها ذي الرنين المميز الذي سمعه حال دخوله عليها:

- كيف دخلت عالمنا؟

- من الشجرة.

- أية شجرة؟ أهي الشجرة الملعونة؟ أتسخر منا يا رجل؟

- أبداً ما أقوله هو الحقيقة.

- سنبحت هذه الأحجية فيما بعد. لقد طلبنا إحضارك لأننا نريد

معاقبك على هذا التدخل في تعديل البشر وما أنت سوى واحد مثلهم، بأي حق تعدل تكوينهم.

- بأي بصفة تسأليني؟

- أسألك بصفتي متضررة إذا شئت؟

- أردت لكم الخير، أردت أن تتخلصوا من آفات الناس العاديين كلها.

- قد نتقبل أن نتخلص من المرض، أن تزداد قدراتنا على التفكير والعمل. لكن ما فعلته بنا شيء خطير، جردتنا من العواطف سلباً أو إيجاباً، وهذا إجرام، تستحق عليه العقاب.

ما زال على ذهوله، شعر بهوان كبير وهو يحاكم بين يدي حفنة من البشر أراد لهم الخير. قرر بينه وبين نفسه عدم الإجابة، تركها تعدد قائمة الاتهام الطويلة التي كانت تحملها بين أصابعها. لاننت نظرتها ثم لهجتها وهي تتساءل:

- لا أظنك أيها العالم قد فكرت بالمشاكل التي يمكن أن تنتج عن هذا التعديل؟ ألم يخطر ببالك أسئلة تتعدى الصحة والذكاء إلى الأخلاق والقانون وحتى السياسة؟ هل كان في خيالك تصور أفضل لما عاشته الأجيال السابقة؟ لنأخذ مثلاً، عزل الجين الذي يثير روح العدوانية لدى الناس أهو الغاية؟ ما الذي سيحصل بعدها؟ هل تريدنا مخلوقات وسطاً بين الملاك والإنسان؟ ثم ماذا بعد؟ هل حياة السلم الدائم غاية؟ هل إطالة عدد السنين التي يحيها الفرد منا غاية؟ ثم ماذا عن الخصوصية الفردية، عن العواطف، هل ستفرض قيود في العمل، في الزواج، طبقاً للسجل الجيني؟ هل سيختلف الإنسان المحسن بين الدول المتقدمة والدول غير المتقدمة؟

- مهلاً سيدتي! أمطرتني بفيض من الأسئلة اعتقد أن إجابتها عندك شخصياً أو عندكم بشكل عام. أنني أحد المتحمسين للفكرة إلى درجة الهوس فأوقفت عمري على تحقيقها وإنجاحها، فمن حقي أن أنتظر الإجابة منك.

التقت ناحية الرجل الذي أشار لها بفكرة الارتياب به، هزت رأسها مؤيدة رأيه بأنه هو بعينه، تقدم الرجل منه وقال:

- لا مكان لك في عالمنا، عليك الخروج حالاً كما دخلت.
قال موجهاً كلامه للمرأة:

- هل أنت السيدة الأولى هنا، أعني هل أنت الرئيس.
طافت في عينيها نظرة دهشة، ولاحت على شفيتها ابتسامة ساخرة، لم تتكلم بل هزت رأسها نفياً فتشجع وقال:
- آه.. آسف، فهمت، إذن دعينا نعمل كفريق لمعرفة الإيجابيات والسلبيات في هذا الإنجاز.

- ما يدريني أنك ستكون على مستوى أفكارنا في النقاش، آسفة لما أقول، لا تنسى من أنت ومن أين أتيت.

- لا تنسى بدورك بأنني من فكر وأجرى التجارب حتى توصلت إلى تغيير الجينات، على الأقل أستحق شرف الحوار معكم.

- هل أخبرك جيداً إن قلت لك بأننا حاورناك كثيراً منذ وعينا سبب الهوة التي بيننا وبين من حولنا؟ صدر حكماً عليك بالإدانة، اعتبرناك مفتر على تكويننا دون وجه حق، صرت قدرنا المرفوض.

ماذا يعني ذلك، هل ستتقضى علي مثل الآخرين تريد خنقي؟ لمح في عينيها التيه الذي عاشه، رأى شاطئ البحر الهادئ، رأى سنوات عمره وهي تتزف، تتفتت أياماً، عاشها مع أناس نتاج عصر الرعب، خائري العزيمة، بيدهم حريات وخيرات وقدرات شتى ولكن لم يعرفوا كيف يستثمرونها.

لن يتنازل، لن يعترف بالخطأ، خاض تجاربه بدافع شريف، أراد أن يغني النفوس القاحلة. عاش على هذه الأمل، حرارة الأمل وحدها هي التي كانت تدفئ روحه الغارقة في برودة المعمل الذي دفن نفسه فيه.
قال:

- هل أقول لك عجباً، أنك بكل ما فيك، تمثلين الإنسان الذي كنت أرجوه، ورسمت له أنموذجاً رائعاً في عقلي؟ أنت تشبهين الفتاة التي أحببتها في بداية مرحلتي الدراسية في كلية الطب، كنت في السنة الثانية حين التحقت بالكلية ذاتها. دام الحب بيننا طوال فترة الدراسة.. ثم افترقنا.
- قد أكون هي، ما يدريك.

- مستحيل.. كان ذلك قبل عشرين سنة على أقل تقدير. لعلها قد تجاوزت الأربعين الآن، وأنت تبدين في عنفوان الصبا.
ضحكت بمجون قائلة:

- لم يعد لعدد السنوات قيمة تذكر.
تقدم منها أحد الرجال، كان يقف صامتاً منذ دخوله عليهم، لكنه تحرك من مكانه في لحظة معينة، كأنه استشعر خطراً ما، قال:

- لا تتسي من هو، ومن أين أتى.
 - ازدادت ضحكتهما صخباً وقالت:
 - ماذا تعني؟ هل أتى من كوكب آخر مثلاً.
 - لا.. لكنه لا يناسبك.
 - من أي ناحية؟
 - من جميع النواحي. على الأقل للمحافظة على نوعنا المميز.
- بدا الاستغراب على وجه العالم، يتناقشون بموضوع كهذا ببساطة وكأنهم يقررون شراء شيء أو بيعه، وصلتهم أفكاره، قال الرجل بهدوء:
- لنتكلم بصراحة، كما تفهمنا نفهمك، بل لعنا نفهمك أكثر مما تفعل أنت. لم تأت فكرتك من فراغ، أعني ليس من أجلنا بل لغاية في نفسك.
 - كنتم هاجسي، حلم وقضية بالنسبة لي.
 - وهل تظن أننا نحيا حياة سهلة دون قضية وحلم؟ لنا احتياجات أشد إلحاحاً وإرهاقاً ممن سبقنا رغم الظروف الجيدة التي أتاحت لنا بفضل هذا التكوين الجديد. لنا متاعبنا كما كان هناك متاعب لمن قبلنا، نفوسنا ممتلئة بالمرارة والقهر مثلهم، ربما دوافعنا اختلفت، ربما أهدافنا تطورت. لقد ناضلوا كثيراً، ضاعوا بين مصالح الإنسان كإنسان وبين مصالح المجتمع ككل متكامل، ثم أخذوا أهون الحلول للخلاص، الرضوخ لتجربة التغيير الجيني. حين جاءتهم أجيال مستحدثة تتحدث بلغة جديدة فيها الكثير من الجدية، تقول ما تفعل وتفعل ما تقول بصراحة عجيبة،

علناً دون مواربة، وفق قوانين المجتمع الجديد، قوانين الآلة افتقدوا المشاعر والصلات والعلاقات عذبهم التعامل معنا.

لا تظن أننا صدقنا ادعائكم بأن فكرة تغيير الإنسان أو تعديله إنجاز صعب وخارق من أجل الإنسان نفسه أو مجتمعه. أسمح لي أن أخبرك أنه الخيار الأسهل، فقد وجدتم أنه من الصعب تغيير القوانين التي تضطهد الإنسان لأن في ظاهرها تقر العدل لكن في باطنها يكون عدلاً مقلوباً يمليه من هو في السلطة بحيث يريحه هو وإن أرهق كافة المخلوقات.

ها نحن أمامك فئة محسنة، نعيش جماعات، تحول الإنسان إلى مقياس واحد، هو المقياس الاجتماعي الجديد أساسه الشعور بالاكتمال والاكتفاء. التنافس والصراع الطبقي يخلق نبض الحياة.

- واأسفاه.. لقد ربطت حلمي بقضيتي، أردت عالماً جديداً، تلغى فيه الفوارق النوعية والطبقية والمحسوبة. أردت عالماً خالياً من الحروب والضغائن، بلا مرض بلا فقر بلا جهل.

قالت المرأة الشابة تعيد الحديث إلى مجراه السابق:

- إذا قبلت أن تعتبرني مثلك على ذات القدر من القيمة والأهمية فأنت تتاسبني تماماً، عندها سأعيد التوازن للمعادلة المنصوبة في رأسي مثل المشنقة التي تعتبرك أساس القضية. في حالة الرفض ستبقى المعادلة مختلة. فلا تغضب إذا ما قلت لك بصراحة إن الرجال هم من كانوا بحاجة لتحسين جيناتهم.

- ولماذا أغضب طالما كل شيء جائز.. أمي مثلاً، اعتقدت لفترة طويلة بأنها امرأة سوية حتى بدأت تحاول إقناعنا بعد أن كبرنا ووعينا بأن أبي الرجل المتسلط الأناني طيب ولكن ما حيلته وقد اكتسب عاداته وسلوكياته بالوراثة، لم أكن أصدق. ثم جاءت الطامة الكبرى حين يئس الطب من معالجة أخي الأكبر، وانطفأ نور عينيه، قالوا أيضاً إنه مصاب بمرض العمى الوراثي، فصدقت.

- أنت تتكلم عن خصوصيات بينما القضية الآن هي مأساة الإنسان عموماً، العلم لم يخلصنا من كوابيسنا، سنبقى نرفض العيش حياة عبثية لا جدوى منها. نتزوجني.

- تأخذين القرارات عني، ما يدريك أنك تناسبيني؟ تشعريني وكأننا في سوق أغنام، انتقيت إحداها الذي هو أنا لترسله إلى المسلخ. شيء مثل هذا لا يجوز مع مثلي، فأنا سخرت أيامي من أجل هم كبير، أهم القضايا، سيد المخلوقات جميعها.. الإنسان وحرية، حرية خياره وأفكاره، هل فهمتني؟ أردت توحيد الجهود من أجل الإنسان، مطلق إنسان.

جال عقلها المحلق بثقة وراء تألق حلمها المجنون الذي صار يخبو مع نفاذ صبرها، ثم يعود للتوهج مع عودة الوعي والإصرار:

- أوافقك.. لكن لا أثق بك، إذا كان هناك معركة فهي معركةنا. نحن بها أولى. أرجوك أن تفهمني، لم يعد هذا من حقك لقد أصبح حق لي أيضاً.

اندهش من عدوانيتها، هل ما زال له أثر بداخلها؟ ألا تعرف أن الرفض من أجل الرفض تصرف أحمق، ألم تدرك بعد أن الفشل نهاية طبيعية جداً لمن يصر على القيام بكل الأدوار بصفة شخصية في لعبة جماعية.

تجاوز هذا الإحساس المرعب وقال برقة:

- يا إلهي تتكلمين مثلها.

- من هي..

- حبيبتي التي كلمتك عنها في البداية، افترقنا بسبب تصلبها بين حقها وحقى، كان ذلك قبل نهاية القرن الماضي بسنوات معدودة. الآن نحن في بدايات القرن الجديد. اسمعيني وافهمي قصدي، يجب أن أبقى بينكم وأعيش على طريقتي وإن اتهمت بالجنون، لا بد أن تتاح لي فرصة لأفهم ما يجري.

- لقد انتهى الأمر، أقصد انتهى دورك. أشعلت ثورتك على موروثات وقوالب رأيته تتنافى مع الإنسانية، حسناً، كان ذلك العمل إيداناً ببدء حياة جديدة، لن يسعك إلا قبولها والاعتراف بها، وإن كنت لا تعرفها كما ينبغي. أجمل ما فيها تحررنا من متاعب كثيرة تصاحب حياة الإنسان فترهقه، حياتنا واضحة مسالمة يعرف كل منا ما له وما عليه. تخلصنا من عبء السنين وآثارها، سنعيش ونموت ونبقى شباباً. انظر حولك.. هل تستطيع أن تحدد عمر أي منا. أتحداك أن تفعل.

ضحك هو هذه المرة بمرارة وقال:

- كأننا في الجنة، يسعدني أن تتمسكوا بحرياتكم كحق وتمارسوها
بمثل هذا الزهو. لكن أكاد لا أصدق بأن ما يدور بيننا حقيقة. هل تم
هذا الإنجاز فعلاً؟

- على الرغم من أنني أتمنى أن تكون حلم يقظة كما قالوا إلا أنني
أرجو أن لا تموه الأمور، بل فكر بالعرض الذي قلته لك منذ قليل.
- أفكر..؟! لا شك أنك تمزحين، على الأقل دعي الأمور تسير
وفق قول شاعر قديم، نظرة فسلام فكلام فموعد فلقاء ...
- ألم يخبروك أنه لم يعد أهمية أو مجرد وقت للشعر ولا
للرومانسية في حياتنا.

- على أي أساس اخترتني.
- لأنك الوحيد الذي وصل إلينا، أريد بصراحة إفساد ما صنعت،
أريد أن أعيد للنسل مواصفاته الطبيعية.

- لا.. لن أوافقك.. هذا تعسف، وأنا أكره التعسف، استشيريني
على الأقل. ما تعيشين فيه من نور إنساني، أنا من أتاحه لك، أنا من
أضاع عمره غارقاً في أبحاثه. أريد الآن أن.. أن.. أقصد..

- لماذا تلجج لسانك، هل ترى صدق ما أقول؟ هناك سدود عتيقة
وقفت بين تمنياتك الآنية ورغباتك الأزلية. قضيتك فاشلة، وحلمك عقيم،
سببقي عقيماً، قد يومض لكنه سرعان ما يتلاشى. لن تعرف كيف
تتعاشي معنا.

- اتركي لي مجالاً لأتكلم. استمرار وجودي معكم ضروري، سأتوصل إلى نقاط الضعف في الإنجاز لأتلافها في الأبحاث الجديدة.

- ها أنت تراوغ من جديد، لقد خسرت جولة الحوار.

اقتربت فابتعد، أحس بشيء يشبه احتراق الخشب الجاف من وهج الشمس، اقتربت أكثر صار الحريق أشد، أحست به بقدراتها الخارقة والتي غالباً ما تكون مصدر عذاب لأصحابها. قال الرجل الذي أمره بالمغادرة:

- لا تقلق، مشكلتها أنها طبيعية إلى درجة خارقة.

رأى جراً وتحرر وتحذ في عينيها وكذلك معظم العيون المحدقة به بانتظار ما ستسفر عنه محاولة كل منهما كسب الجولة لصالحه، لم يجد معنى لهذا الترقب الحذر سوى لعنة الوعي المحرم. ممارسته إنسانيته يعتبرونه إدانة، ليته حرص على ترك شيء من العاطفة في نفوسهم لترتقى أحاسيسهم وتتذوق جمال الإنسانية بتواصل المشاعر مع الوعي.

قالت:

- تبدي لنا اتزاناً إنسانياً لم يعد له قيمة أصبح يعتبر شيئاً من الجنون. دعك من كل هذا واعترف بحقائق أضعت عمرك بالبحث عنها وحين عشتها بيننا تنكرت لها. أولاً مسألة نكون أو لا نكون لم تعد محل جدل. ثانياً بما أنك ألغيت من جوانبنا الكثير من العواطف الإنسانية لأنها تكبح الطموحات وتختصر الآمال لا تستغرب خروجنا عما الفت، سلوكياتنا مميزة شديدة الخصوصية لن يفهمنا أحد ولا حتى أنت. ثالثاً

أنت تعرف جيداً بل ومتأكد بأن ما نفعله ونقوله هو الشيء السوي هو القاعدة، وحده الذي يحق الحق والعدل، بينما أنتم تمارسون مثل هذه القاعدة كحالة طارئة ترتبط بظرف أو بشخص. أنتم مشكلة.

- هل حقاً مشكلتكم مع المجتمع الذي انسلختم عنه وليست مع أنفسكم؟

- إنك تقتلني حين تصرّ على تذكيري بفضلك علينا، متى سنتخلص من العيش كحالة قيد الدرس. أحس جداً بأنانيتك وساديتك وشعورك القاتل بعظمتك، ألم يكن من الأولى لك ولنا تخليص نفسك من عقدها.

استغرقت في ضحك طويل وهي تشير إلى الرجال الواقفة أمامها وتقول:

- حتى هؤلاء الرجال المحسنين لم يتغير فيهم الكثير، ماذا إذا كان العيب في جين الذكورة نفسه؟ ماذا ستفعل؟ حذار. حذار. سيدي دع عنك هذا، فما أنت إلا دونكيشوت جديد، تقاثل أوهاماً بشجاعة وتطرف.

- الوجود جميل، يستحق شرف المحاولة.
- الوجود لم يعد يعكس جمال النفوس الناظرة إليه، الوجود أصبح موقفاً كبيراً يهز العقول، يشعل ثورة العقل لا تتطفئ إلا بالموت.
- أدراك النفس جمال الوجود يصبح موقفاً يعطي معنى حقيقياً للعيش. دعينا نعيش فرحة حلم ساذج في العقل أثناء غفوة القلب.

- ألم تعتبر ذات يوم حزين بأن شيئاً مثل هذا معركة المجتمع المقدسة.

- لا.. بل اعتبرتها معركة الإنسان الأزلية.

- نفوسنا محررة تؤهلنا لتجاوز التحديات والممنوعات بجرأة، لم نعد بحاجة للمراوغة، لم تعد عقولنا تقبل تصنيف البشر حسب النوع واللون واللسان. هيا تقدم لأعلنك زوجي.

أحرف أبجديتها الأمرة أشباح ملغومة. شعر بالخذلان. قالت ببطء:

- لا تبتئس.. لن تتغير أشياء عمرها أجيال بمحاولة أو اثنتين.

أستطيع أن أكلّمك بأسلوب عصرك، أرد على أفكارك بلهجتها، لكنني لا أريد أن أضللك، كما فعلت أنت بنفسك وبناء، دعني أقولها لك بود: "لا تحرك العقل دون الوجدان. سأكتب بمداد خاص اسمي واسمك وأعلن بأننا أصبحنا زوجين".

حاول الابتعاد فوقع بالقرب منها أمسكت به من شعر رأسه وجرته

وراءها، تحرك بعنف رافضاً تلك المهانة، فسقط على الأرض.

فتح الباب ببطء، اندفع فريق العمل المساعد نحو العالم الثروة

القومية بجذع، رفعوه عن الأرض بحنو وحرص بالغ. همس:

- يا له من حلم، يجب أن أدونه بسرعة قبل أن يختفي في تلافيف

مخي المرهق. سأقطع تقاريري. هذا ليس حلاً إنه رسالة، ثمّة خطأ.

سأعتزل هذا العمل الذي سلبني شبابي.

اجتاز الباب المتحرك آلياً، دخل معمله، تناول التقارير محاولاً
إتلافها. يد قوية امتدت فوق يده تمنعه، سحبت التقارير من بين يديه،
واقطاعته خارج المعمل وأقفلت بابه بإحكام دونه، وصوت مساعده الباتر
يقول:

- آسف.. هذا ليس من حقك، اكتشافك لم يعد ملكك، ونتائجه
المدونة في هذه التقارير ملك لمن مول أبحاثك سنين عديدة.
- لكنه مشروع غير مكتمل، يجب أن.. أريد أن..

ضد كل شيء

في البداية أعرّفكم بنفسي، فأنا من سيروي لكم هذه الحكاية، في زمان ومكان الحدث. سترون بأنفسكم أن لهفة الوصول إلى هدف معين قد تكلف صاحبه أحياناً حياته. اسمي طارق، أمي يصعب عليها نطق حرف القاف لذا وعيت على مناداتها لي باسم "طارئ"، وهكذا ترون أنها تنبأت بمهنتي، سأكون طارئاً على كل مكان يتعرض لأحداث ومشاكل من أي نوع، أحداث تتطلب التقصي والبحث عن كافة ملبساتها، أتسقط أخبارها من كل مصدر، من أجل سبق صحفي قلما يتحقق لشخص واحد، فجميع الصحفيين يسعون إلي الهدف ذاته.

عرفتم الآن أنني أمتهن العمل الصحفي. نقل الأخبار بسرعة "الإكسبريس" هوايتي، الدقة مهمة ولكن السرعة أهم، متخرج في كلية الإعلام قسم صحافة قبل سنوات طويلة، قارئ نهم، ومستمتع جيد ومتقّف، علامات فارقه في زمان السلع هذا، زمن أصبح العالم سوقاً

دولياً، كل شيء فيه له ثمن، سواء بعت أو اشتريت، ابتداء من عود الكبريت وانتهاء بالعلم والمعرفة والقيم.

الحقيقة أنني لست صحفياً معروفاً أو مشهوراً له، بل ما زلت تحت التمرين منذ عدة شهور على الرغم من أنني تجاوزت الثلاثين من عمري. في بداية حياتي العملية تنقلت بين العديد من الأعمال، فكنت مرشداً سياحياً مرة، مدير شؤون عمال في مصنع مرة، كاتباً في مكتب محام، هنا اكتشفت قدراتي الكتابية، فقد كنت أهياً له مرفعاته بأسلوب مبهر يلهي القضاة عن مضمونه. حين تعرفون شخصيتي أكثر ستدركون لماذا لم أزل في بداية الطريق، إنه اهتمامي المرضي بالتفاصيل.

اقتربت مدة تدريبي على الانتهاء في مجالي الجديد، وعلى الرغم من كوني لم أذخر جهداً في كل ما قدمت، لم أحظ برضاء رئيسي المباشر أو أستاذي الذي أتدرب على يديه بعد، وبالتالي لم أصنف في قسم بعينه، ما زلت أجري وراء كل خبر وكل حدث وكل تحقيق، ابتداء بالأخبار السياسية، وانتهاء بأخبار الرياضة والموضة. لكنني متمسك بهذا العمل ليس لأنني أحببته فقط، ولكن لأنه يشبع عندي الرغبة بمعرفة الكثير مهما كان سريعاً وكافة التفاصيل.

كل مهنة امتهنتها أحببتها، ولكن في كل مرة أجد من يقف لي بالمرصاد ليدفع بي إلى تغيير جلدي، يريدونني أن أتلون، أن أتجرع المرارة بكل قسوتها وأسقيها غيري دون رحمة، يريدون مني أن أكون ضد

كل شيء دون الاهتمام بالحقائق. قالوا إن شيئاً مثل هذا يحتاج إلى صبر طويل وموضوعية بحتة وتجرد تام، وإلى رؤية الواقع بكل الألوان باستثناء اللونين الأبيض والأسود. لم أوافق على تطبيق هذه القرارات، فأحلت لتهمة جاهزة وهي أنني لا أملك صفات النجاح، لحساسيتي المفرطة أمام الحس الإنساني، وصدقوا، فصدقت.

بالمناسبة، أُمي لها الرأي ذاته في سلوكياتي طوال عمري، كذلك رأي حبيبتي وزوجة المستقبل، مع أنها لم تخبرني بذلك إلا قبل أيام قليلة من موعد زواجنا. قالت وقتها الكثير، ولكن ما حَزَّ في نفسي فعلاً هو قولها إنها تحبني، لكن الحب وحده لا يكفي، وهي تريد أن تعيش. فأصابني منها ما أصابني. على كل، سمعت هذا الرأي من كل من تعامل معي، وأخيراً من رئيسي الجديد في المجلة.

لأنني متمسك بهذا العمل ولا أريد أن أخسره، بدأت المحاولة في تجاوز هذا العيب حسب رأي الجميع، والانسلاخ من جلدي حسب رأيي شخصياً. يبدو أن رئيسي لاحظ اجتهادي، فقرر مكافأتي، وعدني بأنه في نهاية العام الحالي سيبت في أمر إلحاقني بالمجال الذي سأنتقل منه لإثبات مواهبي وتحقيق نجاحي. كان على وشك الانصراف وهو يكلمني دون أن ينظر إلي كعادته، ثم توقف في منتصف الطريق ليقول:

- اسمع يا طارق، إذا أتيتني بتحقيق متكامل، أو سبق صحفي، أو مقابلة مهمة، أو أخبار مثيرة، طبعاً غير تلك الحكايات الغريبة التي تتقلها، فإنك ستكون في المكان الذي تحلم به.

تمهل قليلاً قبل الخروج من مكتبي ثم استدار نحوي قائلاً:
- سأقترح عليك فكرة، ما رأيك أن تحاول إيجاد طريقة ما للوصول
إلى رجل المال والأعمال المعروف مدحت سلمان. تذكره بلا شك، كثيراً
ما يتعرض لإدانة من نوع ما، أخلاقية أو أعمال تجارية مشبوهة، ثم
يتخلص منها بقدرة قادر، ويغلق ملفه دائماً على مجموعة من الأسئلة لا
جواب لها. معرفة الحقيقة التي يعيشها تعتبر سبقاً صحفياً، وقد تفجّر
الأرض تحت قدميه هو وأمثاله.

نظر نحوي طويلاً محدقاً في أعماقي ليرى إلى أي مدى نشط
فضولي الذي عرفه بحاسته الصحفية العالية الكفاءة. قال:

- موافق طبعاً..أرني همتك، سأزودك بالمعلومات الكافية.
لم أهدأ بعد تلك المحادثة، ظل الكلام الذي سمعته يدور في رأسي،
على الرغم من كونه كلام تشجيع ليس غير من رجل مخضرم مثله
لشاب طموح مثلي. تجاهلت كل نقد وجهه إليّ خلال مدة التدريب،
واعتبرته مديحاً استحقه، عشت بانتظار طاقة القدر أن تفتح أمامي.
الأيام تمر وما زلت أعيش تلك المعضلة، أراجع باستمرار
المعلومات التي أصبحت في حوزتي، أفنّدها، أضع خطوطاً حمراء
وسوداء تحت الأهم فالمهم. استغرقني الأمر، فلم أشارك أسرتي سمرها
الليلي استعداداً لحفل زفاف أختي، كنت متفرغاً لمهمتي بانتظار نقطة
التغيير .

بدأ الاستنفار الحقيقي حين أخبرني الأستاذ رشدي رئيس التحرير، عن الحفل الكبير الذي سيقمه الوجيه مدحت سلمان بمناسبة عودة ابنه المهندس "لؤي مدحت سلمان" من الخارج بعد غياب سنوات طويلة قضاهها في التحصيل العلمي، دعا إليه رجال مال واقتصاد ومتقنين وفنانين وأصدقاء ابنه القدامى والجدد.

ما إن ذكر الاسم الثلاثي حتى تذكرت لؤي سلمان، فقد كنا زميلين في مدرسة واحدة. لم أعرف بعد مقدار نجاح محاولته تحصيل العلم في الخارج، لكن ما أعرفه جيداً أن قدراته في التحصيل العلمي كانت محدودة جداً. أسكت التساؤل في رأسي قائلاً لنفسني: وما يدريني، لعله فتح الله عليه أخيراً، فالعودة بعد هذا الغياب الطويل، والاحتفال الكبير الذي سيقمه والده على شرف عودته، ودعوته كبار القوم تدل على أن العودة محمودة.

و..أخيراً نجحت مساعي في حضور الحفلة الموعودة في بيت الوجيه مدحت، هذا يعني أن الفرصة الذهبية قد جاءت، رغم أنها جاءت في توقيت حفل زفاف أختي. لم أعتبرها مشكلة، أبي يقدر ظروفني، وأمي ستقدر فيما بعد، فهي الآن لا ترى شيئاً أهم من وجودي بجانب أختي في ليلة عمرها، فالبنت حين تؤلمها الحياة تقول آخ، يعني تنادي أباها. لم أقتنع، سيطر تحقيق الحلم على عقلي، فأصبح خلية نحل، يلتقط الأخبار من الناس ومن الصحف القديمة ويجمعها.

قد تظنون بي الظنون إذا عرفتم أن ابن هذا المليونير ليس صديقي تماماً، لذا سأقصر المسافة بيني وبينكم، بين حقيقته كإنسان فاشل، وبين ظنونكم بأنني ربما أكون قد تفوقت على كل من علمني كيفية رمي الحقائق في سلة المهملات وتزويرها فأردت إيهامكم بغير حقيقته لحاجة في نفسي. سأقول ما كنت أعرفه عنه جيداً خلال زمالتنا في مدرسة واحدة، وفصل واحد، ومقعد واحد، خلال مراحل التعليم المتوسط والثانوي قبل سنوات خلت.

كان خمولاً لا يبشر بخير، فكيف بالله عليكم انتفع من التعليم في الخارج بينما لم ينتفع في بلده وبلغته وبين أهله؟ ألا يثير شيء مثل فضول من لا فضول لديه؟ لم يكن ينتقل من صف إلى آخر إلا بالغش، نعم لقد كان يحصل على الأجوبة الصحيحة عن كل سؤال في كل المواد التي يتقدم للامتحان بها، ليس عن خفة وشطارة، ولا كان والده يمثل هذا الثراء الحالي في تلك الأيام، حتى تظنوا أننا كنا نقدم له المساعدات على أمل أن تنتفع في يوم أسود أبداً. فقد كان إنساناً متواضعاً في كل شيء، كنا نساعدته مجاناً تخلصاً من إلحاح نظراته المنكسرة، وشفقة عليه. هذه ليست نميمة عليه، كيف يتسنى لي ذلك وأنا أعتبر معرفتي البعيدة به مفتاحي الذهبي إلى المستقبل، وفي أمس الحاجة ليتعرف عليّ ويعترف بصداقتي في هذه الأيام؟

سيطر عليّ فضول غريب لمعرفة الحقيقة. كيف أصبح الأب مليونيراً كبيراً؟ وكيف حصل الابن على شهادة عليا؟ كنت أعرف مسبقاً

أنه السوق الدولي الذي حدثكم عنه آنفاً، لكن الصحافة شيء آخر، تريد أدلة دامغة.

في الليلة الموعودة كان حفل زفاف أختي على قدم وساق، واستعدادي للذهاب للحفل الآخر كان يستغرقني أيضاً. أمي كانت والحق يقال أم عروس بحق وجدارة، تدور مثل النحلة دون أن تنجز شيئاً، تروح وتجيء وتنسى ما تود أن تعمله، تعيد عمل ما عملته وتنسى. أهم ما كانت تفعله وتنساه دخولها إلى غرفتي وإعادة استجوابي، والغريب هنا أنها لم تكن تنسى كيف تبدأ الحوار ولا كيف تنتهي:

- طارئ.. لماذا لم تذهب إلى الحفل عند صديقك؟ طارئ.. لماذا لم تستعد بعد؟ طارئ.. إذا كان عندك كل هذا الوقت قبل ذهابك لماذا لا تخرج وتشارك أختك وعريسها فرحتهما؟

تغيب طويلاً.. وتعود لي مرة بعد مرة تتساءل: أما زلت هنا؟ وتكر أسئلتها من جديد، أبتسم بروح رياضية عالية، فهي أمي أولاً وأم العروس ثانياً، ولا أريد تكدير فرحتها بأخي هيثم ابنها الثاني الذي حصل على الثانوية العامة هذا العام، كان يدخل ويخرج معها منفوشاً مثل ديك الرومي. فجأة وسط كل مشاغلها تتوقف وتزغرد وتعلن للجميع للمرة الألف على مسمع مني، أن هيثم حبيب قلبها نجح في الثانوية العامة وأنه في طريقه نحو مستقبل أحسن ألف مرة من ابنها الخائب -الذي هو أنا- بياع الكلام.

لم أعلق علناً خوف جرح مشاعرهما، ولكنني كنت أضحك في سري
وأتمنى أن أقول لها: " ما المستقبل الذي ينتظر؟ هل سيصبح فجأة ابن
مليونير مثل لؤي مدحت سليمان؟ " أسكت على مضض، فأنا أعرف أن
أمي لا تجد فرقاً بين مدحت بك وزوج أختها صاحب الفرن، أو بينه
وبين أبي ناجي صاحب محل البقالة القريبة من بيتنا والذي بسبب تأخره
عن الحضور الليلة أجلت موعد عشاء العرس دون اعتبار لكل من فيه.
دخل العم أبو ناجي حاملاً إلى صدره أكياساً نهرتني أمي أن
أحملها عنه، ففعلت وأنا أحاول التلصص على ما بداخلها، كان الأول
يحتوي على أرز فاخر، والآخر سكر، والثالث بن، سمعته يقول وهو
يأخذ مجلسه على الأرض حول المفروش المعد للعشاء إنه أحضر هدية
العرس على قدر ما يسره الله له.

جلس يحدثنا عن طلبات كثيرة لشخصية كبيرة تقيم حفلاً كبيراً،
اضطر إلى تأمينها من أماكن أخرى متفرقة. وأسهب في الحديث قائلاً "
المهم ربنا يستر، فالأب صاحب الدعوة يقيم حفلته بسبب عودة الابن من
الخارج، حائزاً على شهادة كبيرة، الابن تقبلها ليفاجئ أبويه بزواجه" ثم
همس في أذني:

- كنت أقوم بدور أحد الشاهدين في زفاف ملوكي، هل تريد أن
تعرف من العروس؟ لن تصدق، إنها أمينة، والعريس هو..
لم تدعه أختي يكمل الحديث، فقد قفزت مفروعة وسحبتي من يدي
إلى غرفتي وهي تتساءل من أين عرفت مدحت سليمان المليونير وابنه،

ومتى وكيف، ربت على خدها وأنا أهمس "بعدين" وأسحبها في الوقت ذاته إلى خارج الغرفة لأجهز نفسي بسرعة، استجابت بليونة ولكني سمعتها تقول لي بدلال لطيف "ستعود قبل ذهابي من البيت أليس كذلك".

غادرت البيت دون أن يلحظ أحد، تريتت قليلاً على السلم المتآكل أرتب هندامي، بينما كان صوت أمي يلاحقني "لقمة واحدة الله يخليك يا ابني يا طارئ". اندفعت بسرعة سالكاً الطريق الضيق والمتعرج بين البيوت، حريصاً على ألا يعرفني أحد، فقد كنت متخفياً في ثياب نادل أحضرها لي صديق يعمل في الفندق ذاته الذي تعهد بالإشراف على خدمة ذلك الحفل.

يشوب توتري مما أنا مقدم عليه شيء من الراحة والفرح، لقد تم أخيراً زفاف أختي، ثلاث مرات أجلت أختي الموعد على أمل أن يتم زواجنا سوياً كما كان مقرراً. كان ذلك قبل شهور طويلة، حين تراجعتم أمينة وهذا اسم خطيبتي قبل أيام من موعد الزفاف، اعتقدت أختي أنه خلاف عادي، فانتظرت طويلاً، لعل أمينة بذاتها أقتعتها بعدم جدوى الانتظار.

وصلت أخيراً، ما زالت جماعات الضيوف تتوافد، استغربت ذلك، ثم فهمت أنها عادة عند أولئك الناس، إذ يعتبرون أن التأخر عن موعد الحضور شيء ضروري للمظهر الأرستقراطي وليس سلوكاً مشيناً كما نعتبره نحن. وقفت في وسط "القاعة الكبيرة" التي تتوسط القصر بحيث

أرى الجميع وأدون وقائع الحفل، مددت يدي إلى جيبِي، ضغطت على زر جهاز التسجيل الصغير للتأكد من صلاحية عمله وبأنه قد سجل كل ما قلت قبل خروجي من البيت، تحسست الميكرفون الصغير، وقد شبكته في ياقة السترة التي أرتديها.

همست للميكرفون ورأسي متقل مما حولي، بذخ العيش مذهل، متاع ورياش لم أر لها مثيلاً في حياتي، تتدلى رقبتِي فوق صدري كأنني ذبيح: التفاوت شديد بين هذه المجموعات، واعتقد أن هذا سيخلق مزيداً من المتعة حين يحاول كل منهم التغاضي عن هذا الاختلاف الذي لا شك ستزداد هوته اتساعاً كلما طالَت الحفلة.

كنت أرصد الجميع لا أريد أن تفوتني شاردة ولا واردة، لذا صرت أنتقل بين الزوايا الأربع. قبل كل شيء علي أن أنبهكم إلى شيء على جانب كبير من الأهمية، البيت الذي يقام به الحفل، وأنا هنا منتحل شخصية غير شخصيتي، ليس بيتاً بل إنه قصر منيف، قاعته الوسطى الرخامية الفخمة واسعة جداً، يمكنني أن أخمن مساحة القصر وملحقاته حين مقارنته بالحي الذي أعيش فيه، يعني يقيم أربعة أفراد مع خدمهم الذين تجاوزوا الخمسة في مساحة تقيم فيها عشر عائلات بمتوسط عدد العائلة أربعة أو خمسة أفراد.

الأضواء تتألق فتزيد من بهاء المكان ومن جمال الأثاث الفاخر، الحان هادئة تتهادى في المكان من البيانو الكبير الرابض في مكان قصي، لا نرى العازف إلا حينما يتمايل مع اللحن، لكن موسيقاه العذبة

حين تتساب في النفوس مع المشروب المندلق في الأجواف كأنها برك صخرية، تقاوم ماء النار المنسكب دون توقف، تبدد التحفظ وتزيل الفوارق.

أتابع توافد المدعوين المستمر. نساء ورجال، كان بعضهم يبدو أنيقاً أناقة منتقاة بدقة، بينما جماعة غير قليلة عرفت فيما بعد أنهم جماعة لؤي، قد وقعت ضحية إمكاناتها المحدودة، يتحرك بعضهم حول بعض، يختلطون بداية ثم يتفرقون، كل إلى الفئة التي توافق ميوله واهتمامه.

كان هناك منضدة فاخرة تنتصب في وسط البهو الواسع، يلمع خشبها الثمين تحت ضوء الثريا المتدلّية من السقف فوقها تماماً، عند دخولي كان عليها بعض علب مغلقة بأوراق ملونة ومربوطة بشرائط جميلة، عرفت فيما بعد أنها الهدايا التي ستقدم للشاب المهندس لؤي أثناء الحفل. لم أر أحداً من المدعوين يدخل وفي يده هدية أو ربطة أو حتى كيس، ومع ذلك كانت العلب تتكدس بعضها فوق بعض بشكل سريع، تقدمت وقرأت البطاقات المعلقة بأناقة فوق الأشرطة المعقودة بأسماء مرسلها مع كلمة تهنئة مناسبة، أدركت أن الهدايا ترسل عن طريق محلات شرائها قبل وصول الضيوف.

من أين أبدأ؟ بدت لي هذه مشكلة عويصة، تمنيت أن أجد بين الحاضرين من يشبهنا، نحن الناس الذين ندعو أنفسنا بالطبقة المتوسطة. على الرغم من أنها تفقد شعورها بأهميتها أمام هذه المظاهر

الخلابة، تستميت للاحتفاظ بمفاهيمها الخاصة، كأناس لا يألون جهداً للتواصل وربط أنفسهم مع الدنيا والناس بمنح المزيد من الحب، لتخضر النفوس القاحلة، وتبتعد عن أسيئها المادية الزائلة.

تنفّس عيناى فى الوجوه أبحث عنهم، طاف فى رأسى تساؤل عما إن كان وجودهم فى مثل هذا المكان والزمان والمناسبة ضرورياً أم مثل حشو الكلام مجرد سد خاثة لىس غير. أجبث نفسى بثقة: لا أظن، فلهؤلاء دورهم الحيوى فى حياة الآخرين المقيمين فى مثل هذه البروج أو القلاع. .

لمحت جماعة واقفة فى ركن بعيد من القاعة، هم أولئك الذين أدارت لهم الدنيا ظهرها منذ الأزل. عزلوا أنفسهم فى زاوية بعيدة عن الآخرين. تبدوا أعينهم الزائغة فى كل اتجاه لمن لا يعرفهم كأنهم يكتبون شعوراً مرضياً بالدونية، بينما مثلى يعرف عن يقين أنه الترفع عن الاندماج مع طبقة المترفين خوف العدوى من تفاهاتهم الغالبة عليهم. سمعت أحدهم يزفر ويده تمتد إلى صينية الفضة التى أحمل عليها المشروبات قائلاً :

- كم أكره هذه الحفلات، ندعى إليها وكأننا من سقط المتاع، كأننا شيء لزوم شيء فقط.
رد آخر ساخراً:

- تكره الحفلات أم تحقد على ناسها وأجوائها؟

انهارت القشرة الهشة التي يحتمون تحتها، وبدت دخائل نفوسهم.
رد أحدهم هازئاً:

- وماذا عندهم يستحق الحقد؟ هنا ومع هؤلاء الناس أرى الدنيا
دنيا فعلاً.

همهم صوت أجش، كان صاحبه قد أسند جبهته على زجاج النافذة
العريض اللامع، تنطبع همساته على الزجاج دوائر ضبابية هشة، تماماً
مثل أمانى وأحلام من لا حول له ولا قوة، تظل تطفو وتخبو في النفوس
والقلوب سراً وعلانية إلى ما شاء الله، قال:

- عند كل الحق، انظروا بالله عليكم في سمات وجوههم
وأجسادهم، كأنهم من طينة أخرى، الحرارة في كلماتهم من الغل الدفين،
ونظراتهم تطفح حقداً وكراهية.

كنت أظن أن المتكلم هو لؤي نفسه، ولكن بعد أن قال ما قال
استبعدت ظني، إذ ليس من الممكن أن يسليخ جلده علانية بهذا الشكل
الصريح. قبل أن أتقدم نحوه، رأيت الأول مندفعاً ومخترقاً تجمعنا بعد
جولة صغيرة بين المدعويين تتألق عيناه بسر خطير، تركته يشرح أسباب
احتدام النقاش في الجهة المقابلة وتسللت إلى ركن آخر.

في الحقيقة كنت أبحث عن لؤي، اعتقدت أنني ربما سأجده وسط
هذه المجموعة المثقفة. لقد وصلني للتو أن الشاب العائد بأفكار غريبة،
على خلاف مع أبيه حول سلوكياته في كل أمور حياته وخاصة العمل.
وأبوه متدمر من تصرفاته، كان يأمل تغيير رؤاه بعد حفلة الليلة.

كنت أظن بأن المثقفين سلطة خفية، سلطة يحسب لها ألف حساب، مهما بدا الوضع غير ذلك. وحين كنت أسمع عن تنكيل الأيدي القوية بهم حين تقبض عليهم كنت أرجع الأمر إلى سبب واحد ليس غير، الخوف منهم لأنهم وقبل غيرهم يدركون دورهم في الحياة. قد تفرزعهم الفئة التي تقوم فعلاً وقولاً بمسئولياتها ولا تخشى في الحق لومة لائم وربما قضت في سبيل رأي أو مبدأ، لكنهم يعولون كثيراً على الفئة الأخرى التي تتسحب من الساحة بمجرد التعرض لضغوط من أي نوع، ثم يعاودون الظهور بعد ما يقرب من ربع قرن ليكتبوا مذكراتهم، فلا يستفيد منها إلا وراثتهم.

لكن هنا كان الوضع مختلفاً. رأيتهم وقد أخذوا مجلسهم في صدارة صالون كبير، مسترخين على أرائكه المريحة في ركن بعيد آخر القاعة الكبيرة، متيقظين كما تفرض عليهم حواسهم الشكاكة. طبعاً ليس من الضروري ترديد ما هو معروف حين تتجمع مثل تلك الفئة المنتفعة في بلاط الأثرياء، كل منهم يعتبر نفسه فريد عصره في العلم والثقافة والحصافة. يشربون ويدخنون بشراهة تليق بمثقفي العصر المتعبين من التفكير غير المجدي لفك ألغاز معضلات الحياة.

رشف أحدهم من كأسه رشفة خفيفة دون صوت، ما إن دخل الشراب جوفه حتى تقلصت عضلات وجهه كلها، ليس هنا مجال التقصي وراء أسباب هذا التقلص فله أسباب أخرى غير لذعة أو مرارة الشراب لا تخفى على أحد ثم قال بصوته المتحشرج:

- يا جماعة اسمعوني، لا بد مما ليس منه بد، الرضوخ لفكرة التجديد دون هذا التعصب الأعمى يوسع مداركنا ورؤانا. نحن بحاجة لدماء جديدة. ما رأيكم بلؤي؟ لقد عاد من دراسته في الخارج بأفكار رائعة واضحة، سيحقق بها الكثير من العدالة الاجتماعية. إذن.. ليس كل ما هو غربي مغرض ويستهدف تراثنا وديننا.

المقولة تتقاذفها الألسن بين رافض ومؤيد، إلى حد الوقوع في الممنوع. رد أحدهم متشدداً بكلام كبير يخرجته متباطئاً من بين شفثيه المتشبتين بسيجاره:

- لا أوافق على أن يؤخذ الموضوع بمثل هذا التسليم والبساطة، فهو بهذا الشكل سيقودنا إلى منزلق خطر، الموجة المطلوب منا أن نركبها دسيسة علينا، حق أريد به باطل. سمعتم الآن ما قاله الأستاذ أمجد بأن موجة التغيير احتياج لا بد منه. الحقيقة كما أرى أنها موجة غريبة مغرضة تتعارض وجوهر حياتنا، تبعدنا عن المحور الأساسي لنصبح كواكب تدور في فلکهم. وبالمناسبة هذا المدعو لؤي والذي رفعت رايته عالياً، ليس سوى قنبلة موقوتة، أرسلت من هناك في طرد بريدي، مدعمة بشهادة علمية .. فخرية، على أهون الشرور.

تحرك آخر بهدوء ليبدلي بدلوه في تلك المعمة:

- منذ أن تفتح وعينا ونحن نمارس الكلام للكلام دون أن ندرك أنه مضيعة للوقت والجهد، لنا عذرنا، فهذا هو الشيء الوحيد الذي نفلح فيه. إذا أردنا وضع فكرة مثل هذه للدراسة ثم للتطبيق، علينا أن نكون على

قدر من التفهم لمواقفنا في كل مراحل حياتنا، أمس واليوم والغد. يجب أن نعرف كافة العوامل والظروف التي أحاطت وما تزال تحيط بنا وبغيرنا، بلا خجل وبلا عقد. أما الماضي البائد الذي يصدّعون به رؤوسنا لا أظنه أكثر من كذبة وخدعة، اخترعناها وصدقناها، وإلا فهل من المعقول أن تاريخاً يمثل هذه العظمة لم يبق منه شيئاً أو دليل ثابت عليه.

همست لنفسي أو للميكرفون: مالهم ولهذه الأفكار، على الأقل هنا، من يهمله الاستماع إلى مثل هذه الهلوسة الخالية نبض الحياة التي يعرفونها ويفهمونها، نفوسهم مشغولة بزيادة أرباحها أو مباحها، وعلى أدنى مستوى، مسترخية لن يوقظها ولا ألف حوار مثل هذا الحوار، ليس عندها ما تخاف عليه، سواء بقينا على حالنا، أو لحقنا بركب من يتصارعون للاستيلاء علينا.

بالمناسبة.. لماذا يرهقون أسماعهم بمثل هذا الهراء؟ هم على ثقة من أننا ساعة الصفر سننضم إلى القطيع ونسير بالاتجاه المرسوم، لقد سلبت منا إرادتنا.. إرادتنا.. يا لها من كلمة رائعة، تقال ولا تمارس، إنها نعمة وحق، لكن أصحاب الشأن يرونها ترفاً ليس من حقنا.

قبل أن أبتعد عنهم سمعت أحد المغالين المتعصبين يصيح:

- الغرب.. الغرب.. مشجب رائع لتهاونا وفشلنا المتكرر. أين نحن منه؟ يا ليتنا نصل إلى جزء يسير من إشعاعه الفكري. إنه منبر حقيقي إبداعي لا يجارى، لقد حققوا تصوراً مختلفاً ومعيناً لحياتهم الجديدة،

الحرية أولاً، الحرية أخيراً، معين الحرية عندهم لا ينضب. كم أتمنى عودة هيمنتهم علينا ليعلمونا قسراً ما عجزنا عن الوصول إليه طوعاً. ليس من العدل أن نبقى نردد مثل البيغاوات أحاديث سلف أكل الدهر عليها وشرب وأصبح ضررها أكثر من نفعها، يا جماعة نحن أولاد ظروفنا وعصرنا. هل يصدق أحد أن شخصاً مثل لؤي يذهب إلى الغرب لا يعرف من أمور دنياه أو دينه شيئاً ثم يعود حاملاً لواء التدين وكأنه خارج لتوه من صومعة أحد الأنبياء؟

يا إلهي ماذا يقول؟ أيطالب بعودة الاستعمار؟ صحيح أننا لسنا بحال أفضل مما كنا عليه أيام الاستعمار، ولكننا على الأقل أحرار في بلادنا، ننام مثل نومة أهل الكهف أو نقوم للعمل هبة رجل واحد، لا رقيب قانونياً علينا. كم أتشوق لرؤية هذا اللؤي، فما يقال عنه ينذر بالخطر.

انصرفت داخل نفسي أهمس لها، هل كنت فعلاً على خطأ فيما مضى من عمري أم كنت على صواب؟ أين الحقيقة؟ أين؟ أكان لا بد أن أسير مع السرب في كل الأحوال؟ هنيئاً لكل ما ساهم ويساهم في تدمير امتيازاته. عشت حياتي أتجنب مثل هذا التدمير لإنسانيتي فماذا كانت النتيجة؟ فشل وراء فشل.

يعاودني الآن صوت أمينة في تلك الآونة تتهمني فجأة ودون سابق تلميح، بأنني أتخلق بأخلاق العصور الوسطى وبمعزل عن الواقع. أهذا الشيء الذي نراه ونسمعه الآن، المتلون كالحرباء يسمى واقعاً، والجهر به

منتهى الشجاعة؟ أه.. أين أنت يا أمينة لترى بأمر عينك هذا التردى الذي
سميته واقعاً؟

إن ما أقوم به الآن يعتبر تقدماً عظيماً في الهروب نحو الواقع
المرجو والمعاش لحظة بلحظة. كل هؤلاء الناس يعيشون بواقعية مرحى
لهم ومرحى أكبر لي. اختلطت الأصوات تضج في أعماقي، تبينت
صوتها البارد، لم أتأثر بما قالت بقدر برودة صوتها، هزة أفقدتني اتزانى:
- سأتركك، لن أستمع معك.

سألت بامتعاض:

- ماذا؟ أقصد لماذا؟

- لا أريد دفن نفسي مع شخص لا يتلمس أرض الواقع إلا لماماً،
وبعدها يتوه في ملكوت خاص ذهب أوانه، نحن نعيش عصر "إذا لم
تكن ذنباً... ..

- تعنين بالواقعية التخلي عن إنسانيتي؟ أتريدى العيش بقانون

الغاب؟

- لا إنما أعني أن تعيش الوضع معكوساً كمعظم الناس، دع
إنسانيتك لنفسك وعش الواقع، عشه حقيقة بدل أن تلامسه لحظات، ثم
تتوه عنه، تهرب إلى حيث لا أعرف .

- أتوه.. أهرب.. هذا اتهام كبير، لم أكن أظن أنني استحق منك

هذه الإهانة، كنت أظن أن ما بيننا خلاف في وجهات النظر، كان رأيي

وما زال أن من الواقعية أن يشمل اهتمامي كل شيء لأحقق الهدف الحقيقي من الحياة.

- أكمل من فضلك وشرح لي وجهة نظرك. ما هدفك الحقيقي من الحياة؟

- إنه حتماً شيء أكبر من استمرارية الوجود، الوصول للكمال للجمال..

لم أكمل.. أفزعني صراخها وهياجها وبكاؤها الهستيري، قذفت بالخاتم عن بعد وهرولت بعيداً والكلمة الأخيرة معلقة على شفتي مصلوبة مثل شيخ أتهم بالزندقة أمام حاكم جائر.

المسألة ومنذ البداية واضحة يبدو أنها.. وقبل أن أتم جملتي وأدبها تذكرت أنني مسئول بطريقة أو بأخرى، خسرت كثيراً من المواقف لأن للجميع وجهة نظرها ذاتها، ألم تهمس لي أمي ذات يوم "هل ستبقى طول حياتك تقيس الأمور بميزان الصائغ الدقيق؟" لماذا كانت تهمس، أليس لأنها كانت تدلني على سبيل ملتو للوصول؟ لقد تعودت على تجرع العذاب، صرت أتلذذ به، لم أعد أحسه موجعاً أو مؤلماً، أدمنته، وصلت إلى نوع غريب من الإحساس.. السخرية منه ومن كل شيء.

لقد شطح خيالي بعيداً مرة أخرى، فقد تنبتهت أذناي للركن المقابل. هناك كانت تنتثر أفكار فجة، تولد في لحظة، وتفرض وجودها بسرعة حسب مكانة قائلها المالية، أعني بقدر عدد الأصفار التي تتسلسل على يمين الأرقام. الجالسون هناك أغلبهم من رجال الأعمال، ناجحون

وأثرياء، غالبيتهم مستجدون على الأعمال وعلى الثراء أيضاً. صالون فاخر يقع في الشمال الشرقي من القاعة، على المناضد الجانبية تماثيل برونزية تمثل آلهة اليونان القديمة، بجانبه إله الحرب بالعربة والقوس والسهم. استجمعت عقلي وأبعدت هواجسي عن خاطري، أليس في وعيي الآن رضا نتيجة التغيير المطلوب من قبلي ومن قبل الجميع؟ إذن..

كان التمثال على يمين مدحت بك الجالس بصمت وقد أعطى ظهره لحديقة القصر، إحدى جنان الله على الأرض، ممسكاً بكأس شرابه يدينه من شفقيه ويبعده بتأن واستغراق حذر، نقلت بصري بسرعة بين يده الحاملة الكأس وبين عينيه أريد أن أستشف عدد الكؤوس التي احتساها منذ بداية السهرة فجعلته هادئاً صامتاً أو تعباً، تجهيز حفلة بكل هذه الروعة وبكل هذه الفخامة وبهذا العدد من المدعوين لا بد إنها أخذت منه الجهد الكبير، يحتاج بعدها إلى هدوء أعصاب وابتعاد عن كل ما يثير ويؤرق.

قد تتساءلون وما الذي يؤرق إنساناً مثله؟ معكم حق، فأنا نفسي تساءلت، ثم توصلت إلى جواب يحتاج إلى شيء من الجرأة، إنه الخوف، الخوف من كل شيء، الخوف من أمسه الفقير، الخوف من السقوط من القمة التي بلغها بعد عناء التسلق سنوات طويلة، الخوف من أعز الناس، ابنه وأصدقائه، الخوف ممن أزاحهم من طريقه أثناء هروبه من حالة العوز المحبطة نحو قمة أصحاب الأرصد الخيالية. لا شك

فيما أثير حوله بأنه أودى بحياة كثيرين، وأوصل كثيرين إلى السجون أو إلى المصحات العقلية.

ما أكثر النساء حوله.. كل واحدة منهن قد أنشب أنيابه في لحمها بينما أطلق يدها في أمواله، كان ينظر إليهن جميعاً نظرة واحدة، نظرة عين التاجر الوقحة، فترد عليه تلك الأعين بنظرات قلقة، تتمنى عليه أن ينيلها شرف إشارة من إصبعه، تدخل بعدها إلى حياة الجاه والمال.

- ما أخبار الأسهم والعملات في هذه الأيام يا مدحت بك؟

رد دون أن يحرك جسده المسترخي:

- حين نفشل في اختراع الأزمات فلا جديد. تصور مثلاً روعة قيام حرب عالمية فعلية، أو إبداع حقيقي في تسويق تهويمات سياسية، كم ستفجر الأموال من كل حذب وصبوب بين أيدينا.. صحيح أن كل ذلك أصبح حكراً على جماعات تنتمي إلى مؤسسات منظمة، تساوم أكثر، تبرع أكثر في إثارة شعوب ضد شعوب، فتحرز رضا أصحاب الغايات، لكننا في آخر الأمر نستفيد، يبقى لنا دورنا على أي حال. أرجوكم ابتعدوا عن حديث المال والأعمال نحن في حفلة سمر.

قال آخر متجاهلاً الرجاء:

- من هم أصحاب الغايات يا مدحت بك؟ أليسوا هم التجار، ابتداء من تجار مواد الغذاء وانتهاء بتجار السياسة والموت؟ لماذا نتخفي؟ أليس لمعظمتنا إصبع هنا أو هناك؟

سخر ضاحكاً:

- لم تعد تكفي الأصابع يا عزيزي، لم يعد أحد يرضى بنصيبه.
تجار الغذاء يصرخون أن الفقراء ازدادوا، والذين توقفوا عن الطعام
بأوامر طبية أو من أجل تناسق أجسادهم ازدادوا.

أكمل أحد التجار عن بعد:

- ماذا عن تجار الأسلحة؟ اعتقد أن أحوالهم بألف خير، طالما هم
قادرون على شراء ذمم تجار السياسة، فإذا توقفت أزمة هنا نشبت هناك،
تندفق الملايين على جيوبهم وجيوب من هم أكبر منهم بلا حساب، ألا
تستحق هذه الغايات إشعال الحروب في كل مكان ولو احترقت كل
الأصابع؟

رد مدحت بك:

- كلها غايات مفيدة، تجارة، صناعة، ذهب، ماس، حتى الحرب
لها شرها ولها أيضاً خيرها.

- لقد أصبحت دمويًا.

- أبدأ .. لست أسوأ من غيري ولكنني أمارس حياتي بهدف

الوصول إلى ما أريد دون خجل ودون موارد.

- ودون خوف أيضاً؟

- مم أخاف؟ من يملك المال لا يخاف.

قال أحد الجالسين مشيراً إلى التمثال أمامه فلمع خاتمه الماسي:

- أمس حضرت مزاداً لمثل هذه التماثيل البرونزية، استهوى

زوجتي تمثال له وجه طفل بجناحين وبيده قوس وسهم يشبه هذا الذي

بجانِب مدحت. هل تصدقون أن ثمنه يعادل ثلاثة أضعاف ثمن قطعة الأرض التي اشتريتها في الشهر الماضي في قرينتا والتي تقدر مساحتها بما يقارب ربع مساحة الأراضي الزراعية هناك، والتي أنوي إقامة مصنع سماد وأصباغ عليها ؟

تحرك مدحت بك قائلاً بلا حماس:

- الحقيقة أن هذه الأشياء غالية جداً وخصوصاً إذا كانت أصلية وليست مزيفة، ولا أظن أن من السهل العثور على الحقيقي في أي مزاد. أظن أن ما رأيته ليس حقيقياً تماماً، فالسعر الذي قدرته من كلامك قليل قياساً لما دفعته شخصياً في كل تمثال من هذه التماثيل، لقد اشتريت معظمها من مزادات عالمية أقيمت في دول أوروبية قبل عدة أعوام، ما دفعته يعتبر مبلغاً خيالياً.

- هل تعتقد أنني أدعي ولا أعرف حقيقة تقييم ما يباع ويشتري؟ ثم إنني لم أوافق على شرائه، ليس من أجل ارتفاع ثمنه، فأنت تدري مدى ثرائي فقد جمعت المليون الأول وأنا دون الخامسة والعشرين من عمري، فمبالغ مثل هذه تافهة لا تستحق، لكنه لم يعجبني، وخاصة أن زوجتي أصرت على أنه إله الحب. تصوروا ما قالتها، إله الحب هو أيضاً أصبح يباع في زمن الصفقات.

- ما أعرفه أنك رجل الصفقات، بل لقد قلت مراراً إنك ابتدأت حياتك بصفقات فجائية، ثم أصبحت مختصاً ولا ينازحك منازع .

أنهى الجدل المحتدم بدعوة الجميع للعشاء، تدافع الرجل كالكرة فيصطدم بكل من حوله، كان يريد استكمال كلمته الأخيرة بروح رياضية قبل الوصول إلى المائدة الفاخرة العامرة، لم يتمكن من ذلك قبل أن يأخذ مكانه بانتظار دوره ليملأ صحنه مما لذ وطاب، قال متظافراً:

- ألا تعتقدون أن حياتنا على الأرض صفقة يا جماعة؟ خلقنا نحن والمقايضة في اللحظة عينها. افعل هذا ولا تفعل ذاك، وخذ نعيماً وإلا فالى الجحيم.

تقدم أحد الشباب وتساءل:

- آسف للإزعاج يا سيد سهيل، سمعتك تقول منذ قليل إنك اشتريت قطعة أرض في بلدتك لتقيم عليها مصنعاً للسماد؟ لماذا السماد إذا كنتم حريصين كل هذا الحرص على تخريب الأراضي الزراعية؟
- العصر عصر صناعة يا ابني، ثم إن الأرض تخص أحد أقربائي وقد دفعت بها مبلغاً خيالياً، يستطيع أن يشتري بثمنها أرضاً أكبر ويستصلحها بسمادي.

قال مدحت بك:

- أف.. لا أطيق حماسة هذا الجيل، ألا ترون أنه جيل أحمق لا يفهم ولا يتركنا نفهمه؟ من هذا الذي كان يتكلم؟ ظننته ابني. من أين يأتون بكل هذه الوقاحة يا أخي لست أدري؟

أدرت وجهي في كل الاتجاهات بحثاً عن هذا الابن لم أوفق، مشكلة إن كنت قد نسيت شكله. البهو واسع فعلاً، والمجموعات عادت

للالتهام من جديد بالوضعية السابقة، تحمل أطباقاً مملوءة بالطعام، بارد على ساخن على أنواع عديدة وكثيرة، كم لا يصدق أن باستطاعة معدة واحدة تحمله. بقيت في مكاني نصف مختبئ حتى اسمع أحداً ينادي على لؤي فأتعرف عليه، فجأة سمعت همساً من سيدة لأخرى فلم التفت بل أنصت:

- لا أعرف متى نزلت عليهم هذه النعمة ولا كيف، فحتى عهد قريب كانوا على رأي المثل " كما خلقتنا يا رب" أكيد أنه الكسب غير المشروع. ولكن ألا تلاحظين غياب ابنهم عن الحفل؟
أثارت دهشتي، خيل إلي أنه في مكان ما حولنا ولكنني نسيت شكله. ردت الأخرى بالهمس ذاته:

- حقاً لؤي لم يظهر بعد، سمعت أنه على خلاف شديد مع والده، لا أحد يعرف الحقيقة، فكل ما يفعله هؤلاء الناس له حصانة خاصة لا يجرؤ أحد على أن يتكلم عنه. لكن.. ألا ترين معي التناقض الواضح بينهم وبين يسر الحال الذين يغالون في إظهاره؟ انظري إلى ملابسهم تبدو وكأنها تلبسهم وليس العكس. ها هو أبو لؤي يصعد الدرج، لعله ذاهب ليستعجل ابنه، نحن هنا منذ ساعتين ولم يحضر، أیظن أنه وحيد عصره؟ أو لم يحصل علمه أحد قبله ولا بعده؟

فجأة قامت الأولى وبصوت عال رحبت بالسيدة القادمة، عرفت أنها السيدة المضيفة ظهرت فجأة لتطمئن على أحوال ضيوفها، فأردت

إحداهن أن تنبه الأخرى قبل فوات الأوان فاستجابت الأخرى وفهمت،
فقالتا بصوت واحد:

- رائع.. كل شيء رائع يا حبيبتي، مبروك نجاح لؤي، لم نره
لنهنته.

لم اهتم بسماع الجواب على قدر ما يهمني، فقد امتلأت نفسي
بالسخرية من كل شيء حتى من نفسي، فما أنا إلا متصلص حقير.
أصبحت استسيغ استعمال العملة الجديدة ونسيت القديم.
ما أن خطت صاحبة البيت بضع خطوات فقط حتى التئم شمل
عدد أكثر من النساء، فوجئت بإحداهن تقول:

- لقد عادت المياه إلى مجاريها بينها وبين زوجها مدحت بك بعد
الفضيحة التي عملها، لقد أقسمت لي أيماناً غلاباً بأنها لن تعود إليه
مهما كلف الأمر.

- لقد عادت وغيرت أقوالها ووجدت له العذر، فقد ضحكت عليه
تلك الفتاة اللعوب، أغوته وحرضته على الهروب للزواج بعيداً عن
الجميع، لكنه استدرك الأمر وتخلص من شركها، وعاد تائباً مستغفراً
لزوجه وبيته.

قالت أصغرنهن سناً:

- بالله لا تقلن مثل هذا الكلام، هل من المعقول أن تضحك عليه
صبية في عمر أولاده؟ ألا تعتقدن أن العكس هو الصحيح؟

- حرام عليك، إن في الرجل ضعفاً أمام المرأة، هكذا خلقه الله،
ضعف فطري ما ذنبه؟
صرخت الصبية:

- لا بد أنك تقولين ما تقولين على سبيل التندر، فمن غير
المعقول أن تقول سيدة مثل هذا الكلام كأنها تستسيغ غطرسة الرجال
دون تحميلهم أية مسئولية، على الأقل اعتبرن أن الرجل والمرأة كلاً
منهما إنسان له سلبياته وإيجابياته، مواقف ضعف ومواقف قوة و..
- بعد إذنك أريد أن أستوضح أين تلك الفتاة الآن، أليست صديقة
ابنته؟

- وهل تجرؤ على العودة إلى الظهور أمام الناس بعد أن فشلت
في مشروع زواجها؟ أعلمتم أنها تغيبت عن بيت أهلها بضعة أيام ولم
يعرف لها مكان؟ لا شك أنها كانت معه، لا أحد يجزم ما حصل بينهما.
على كل حال دعوا الخلق للخالق.

فجأة تسمرت الأعين كلها على مدخل القاعة، برزت من الظلام
فتاة شابة، بدت مثل طالبات المدارس بملابسها البسيطة البنطلون
الجينز والقميص القطني الأبيض، تتلفح بشال طويل فوق كتفيها يصل
حتى قدميها، سارت بثقة تحي الجميع ببشاشة، فترد العيون المبهورة من
تألق الصبا على الوجه النظيف، تتدلى خصلات من شعرها الأسود
المقصوص على الجبين. رأيتها تتوقف حتى لحق بها شاب ملتح ويرتدي

جلباباً شأن رجال الدين، أمسك بيدها وتقدم بها نحو الجميع. صرخت
إحدى النساء المتجمعات بالقرب مني :

- يا للواقحة! إنها هنا، انظروا لقد حضرت، إنها صديقة الابنة،

هل تتحدى البنت أمها وأباها بدعوتها؟

التفتت الصبية الواقفة بينهن ثم قالت وهي تتضحك:

- ألا ترونها بصحبة لؤي؟ إنها ضيفته.

صحن بصوت واحد:

- يا للمصيبة...

سحبت نظراتي الحائرة نحو الفتاة! كانت تشبه أمينة في كل شيء
إلا هذا الاستخفاف بكل من حولها. أهذا الواقف بجانبها هو لؤي إذن؟ لم
أتذكر وجهه، أكثر من عشر سنوات طوال كافية لتغيير معالم الشاب من
المراهقة إلى الرجولة. سحب الفتاة من يدها، وتوجه مباشرة نحو ركن
قصي جنوبي القاعة، لحقت بهما، كنت مصراً على التقرب منه عن
طريق تلك العلاقة القديمة.

أطلقت روائح البخور في الجو، صدحت ترانيل دينية، توقفا بين
شلة الشباب المتجمعة في ذاك الركن، مقاعد متناثرة هنا وهناك لم تتسع
لمجموعة الشباب والصبايا فانتشروا على المقاعد وأذرعها، أكثرهم جلسوا
أرضاً فوق السجاد العجمي الفاخر، بدوا أكثر الجميع راحة وتحراً،
شباب من الجنسين على وشك التخرج أو في أوائل مراحل حياتهم
العملية.

لم أتبين موضوع الكلام فقد كنت متلهفاً فعلاً على رؤية لؤي والفتاة، أهي أمينة بذاتها؟ أهذا معقول؟ لقد أخبروني أنها تزوجت رجلاً كهلاً ثرياً. ما لي ولهذا الآن، فأنا في مهمة لن أحيدها، لتكن من تكون، أصخت السمع، حاولت التقاط خيوط الحديث لأتبع ما يجري فلم أفجح تباين الأفكار والأمزجة أحدثنا ضوضاء كأن الجميع في حلبة صراع، حقائق تنبش من مدافن الزمن، وأكاذيب تروج وتكذب من جديد، كلام كثير عن الحرية وأزمتهم معها، والديمقراطية المغيبة، والشيعوية المنهارة، وعودة الروح للدين، ووجوب شن حرب ردة بكل الوسائل الممكنة لإعادة الناس إلى حظيرته.

تذكرت عنواناً كبيراً كان يحتل صدر الصفحة الأولى في صحيفة رسمية لمسئول كبير بالخط العريض " انتبهوا أيها السادة، كثرة الشعارات ليست أكثر من مظلة تخفي العجز في أيام الخواء" دخول شاب أعادني إليهم، اخترق مجالنا صارخاً:

- العروسان هنا، هيا للاحتفال بهما. الظلام حالك في الخارج، والجو خانق في الداخل، أين الهواء والهوى؟ أين الضياء والأمل؟
ضج الجميع بالضحك، كلمة العروس تطن في أذني، قام أحدهم من جلسته الأرضية وفتح النافذة المقابلة، اندفع الهواء بشدة قائلاً:
- ها هو الهواء قادم يا سيدنا العزيز، عليك بتدبر أمر الهوى والضياء والأمل، أو تكتفي بالبصيرة فلا يعمى العيون إلا عشق الحياة، لكن ألسنا مغرمين بزيف الحياة؟

ضحك الجميع مرة أخرى بينما قال أحدهم بهمس:
- ماذا أسمع يا خالد؟ هل انتقلت إليك العدوى من لؤي؟ قال في
عظة أمس بمنتهى الخشوع " لا تعمى الأبصار إنما تعمى القلوب التي
في الصدور " عجبي..
قال أحدهم من ركنه البعيد:
- الحياة هي الحياة، هي لنا ونحن لها، خلقت من أجلنا وخلقنا
لنعمرها.

- أو نعيث فيها فساداً.

- الآباء يأكلون الحصرم ...

في الصوت رنة غريبة، التفت إليه لم أتبين وجهه، سوق هزيلة
تحاول الانفصال عن الجذور. اقتربت منه وهمست "لؤي أنا طارق" لم
يرد ولم يعلق، شعرت بالغثيان، أين أنا؟ ولماذا ألقى بنفسي في هذا
المستقع؟ تذكرت، يجب أن أتحمل، خطرت فكرة عابثة على رأسي
المرهق فابتسمت، سأذكره بنفسي وأخبره بأنني من علمه كتابة اسمه،
فقد كان يصر على وضع الهمزة على السطر فأقول يائساً، على الواو يا
أخي على الواو، متى سنتفهم؟

تركت مكاني محرراً وابتعدت قليلاً، قادتني خطواتي إلى جلسة
خاصة جداً رقيقة وحالمة جذابة الألوان بديعة التنسيق، سلال الورود في
الأركان تتضح عبيراً منعشاً. لسوء الحظ، بكل ما فيه من جمال وحيوية

ورومانية، احتله من هم في نهاية مشوار الحياة، ابتعدوا عن الجميع
وقد آثروا السلامة، لم يعد عندهم قدرة على الأخذ والعطاء .

القوا أجساداً أرهقتها السنوات فوق المقاعد، استرخاء قسري وفي
القلوب حسرة حارة على الشباب الضائع. ضوء خافت، صمت مطبق،
كل غارق في وحدته متناسياً وجود من حوله، لم تعد أنفسهم ترغب في
شيء، منتظرين رحيلاً وشيكاً، ليتركوا كل شيء إلى حيث لا شيء. أو
العكس.

تنفست سيدة من بينهم الهواء ثم زفرته بتؤدة، كأنها تزفر روحها،
أنعشتها نسمة الهواء المندفعة من النافذة المفتوحة. قالت:

- ليت كل النوافذ والحواجز تلغى، تخيلوا كم ينبسط العالم ويتسع،
أه، للشباب جرأة عظيمة، أحب طريقتهم الفجة في التعامل مع الآخرين
ومع الأشياء. يفكرون بسرعة، بوعي وبإحساس الفنانين، كل الشباب
فنانون.

هز جاراها رأسه مؤمناً على كلامها، ضيق عينيه وذكريات حية تنز
في أعماقه، وقال:

- في الشباب دفعة حماسة رائعة، حين نفتقدها نشيخ.
همست في ميكرفوني " يقصد أننا حين نشيخ نفتقدها" أم هكذا

أوجع؟

قالت أخرى بفضول:

- لقد تغير الحديث هناك، اسمعوا إنهم يتكلمون الآن عن السليبات والإيجابيات، لهجات ساخنة ولكن، أيفهمونها؟
رد آخر وقد خلع نظارته وانشغل بتنظيفها:
- كيف يفهم القصد إن لم يكن وارداً أصلاً في ذهن صاحبه، إنها الشعارات، صدقوني.

توقف الجميع عن فعل كل شيء، وقف الجالسون، توقف الأكلون عن مضغ طعامهم، اقترب الجميع وكأنهم مساقون بقوة مغناطيسية نحو منتصف القاعة، تألفت عيون وانطفأت عيون أخرى، تقدم الشاب مع فتاته إلى منتصف القاعة صائحاً " يا الله، يا ساتر". شاب عجوز، أو عجوز في جسد شاب، طويل القامة، حلو الملامح، أسمر اللون، عيناه سوداوان تبرقان بنور خارق، يعلوهما حاجبان غزيران وطويلان، تحت جبين عريض واضح أملس، شعر رأسه ولحيته مطلق، حليق الشارب، يرتدي جلباباً قصيراً وفي قدميه نعال هندي غريب عن المألوف، بيده سبحة طويلة تقرقع حباتها كلما أفلت إحداها من بين أصابعه التي تعبت بها بشكل مستمر، وابتسامة راضية على شفثيه، والوجه غارق في سلام عميق، كأنما يستمده مباشرة من السماء. أجال النظر فيما حوله طالباً الهداية للضالين والمضلين. أخذ يتنقل بين المجموعات الواقفة حابسة أنفاسها. رفيقته السمراء الرقيقة تسير بجانبه بهدوء، توقف فتوقفت. قال بصوت جهور:

- أبي .. أمي .. أقدم لكما زوجتي أمينة.

هرعت النسوة اللاتي كن منذ لحظات يقطنن أوصالها يقبلنها
ويحتضنها، مد يده وأبعدهن. همس صوت بجانبني:

- هذا لؤي ابن مدحت بك سليمان، صاحب الملايين المشبوهة،
والتجارة المشبوهة، وأعمال الخير الكثيرة المشبوهة. ابنه الوحيد، عاد من
الخارج بعد إنهاء دراسته في الهندسة. عاد مشعوذاً لا ينفع ولا ينتفع، إنه
العدل الإلهي، الجزء من جنس العمل.

كان الأب والأم في ذهول من هول المفاجأة، تقدمت أمه منه
وهمست:

- لكنك وعدتنا بأن ترتدي..

رفع يده إلى فمها وأسكتها، ثم تناول كفيها بين يديه ولثمهما
وابتسم، أعاد تفحص وجوه الحاضرين وامتعض من جمودها، قال:
- السلام عليكم.

جاء الرد متكسراً من جميع الجهات، ثم استفاق الناس وتقدموا
للسلام، كان يصافح الرجال ويمتتع عن مصافحة النساء، أو حتى النظر
إليهن. لم تتغير معالم وجهه كأنه ما زال وحده في غرفته غارقاً في
وحدته، يتمتم بهمسات لا أعرف إن كان يستعيز بشياطين الإنس والجن
أو يقرأ شيئاً من القرآن.

اقتربت منه ماداً يدي للمصافحة فلم يمد يده، تفحصني متسائلاً
فقلت:

- أنا طارق، زميل قديم منذ أيام دراستنا في مدرسة ..

قاطعني قائلاً:

- أهلاً.. خير إن شاء الله! أظنك تعمل مع هذا الفريق القائم على خدمة هؤلاء السكارى، ألا تعرف أنه ملعون كل من..

- لا يا سيد لؤي لست ضمن هذا الفريق بل إن لي عملاً آخر. لكنني حضرت بهذا الشكل لأكون ضمن من أتوا لاستقبالك وأشارك في التهنئة بالعودة والنجاح..و..

- ماذا.. لم أفهم؟..أتعني أنك تركت عملك وأضعت ساعات بانتظار إنسان غاب سنوات لم تعد تذكر شكله ولا هو كذلك يذكرك، وتحاول إقناعي أنك لا تريد شيئاً محدداً؟ ماذا تعمل؟
- في الصحافة..

- ماذا تعمل في الصحافة؟ هل تكتب في السياسة التي يسمونها فن الكذب؟ أم تكتب عن المجتمع الذي يكتوي بنار الحرمان من أبسط حق من حقوقه بصبر لا ينفد وتشيد بقدرتهم على الصبر وتكتب للناس أن المجتمع بخير؟ أم تسلط الضوء على حفنة مثل هؤلاء الموجودين هنا، وتشهد البذخ الحرام، ومع ذلك تقول للناس إن الخير يعم الجميع؟ أم تتجراً وتقول عنهم إنهم العصاة التي تسرق البلد وتجوع أبنائه وترمي بهم إلى الجحيم يوماً بعد يوم؟ أم تحكي عن الدين مؤكداً أن كل بلاء يهون إذا وجدت فضائله بين جنبات بعضنا؟ أم تؤيد الرأي القائل إن الدين أفيون الشعوب؟ ماذا تعمل في الصحافة؟

لم أجب.. مد يده وأنتزع الميكرفون من جيب سترتي وألقاه أرضاً
وقال:

- هذه ليست من الأمانة في شيء أليس كذلك؟ أعطني شريط
التسجيل حالاً فما يجري في بيوت الناس لا يخص أحداً سواهم.
انتزعت نفسي من أمامه قبل أن تمتد يده وتخرج جهاز التسجيل
الذي عليه المعول الأكبر في بناء مستقبلي الصحفي، وركضت إلى
الخارج بأقصى سرعة، لكنه أدركني وأمسك بي من ياقة القميص،
وجذبني بقوة أفقدتني توازني فسقطت على الأرض، جثم فوقي وحاول
انتزاع جهاز التسجيل الصغير من جيبتي، فقاومت دون أن أقوم بأي
حركة عدوانية تزيد من إثارة أعصابه .

فجأة صفعني بقوة على وجهي، أحسست على إثرها بدوار خفيف،
ما إن أفقت منه، حتى أحسست بدم يتدفق من فمي لا أعرف تماماً إن
كان من أسناني أم من شفتي الملتهبة. تملصت من تحت ثقله الرابض
على صدري ووقفت أترنج ومع ذلك عاجلته بضربة قوية دفعته بعيداً
فاصطدم بالتمثال البرونزي فوقع على الأرض وهوى فوقه تمثال إله
الحرب بكل عدته وعتاده. الدماء تسيل على الأرض مني ومنه، أطلقت
ساقلي للريح وظللت على تلك الدرجة من الفزع حتى وصلت إلى الشارع.
توقفت، لم أصل إلى نتيجة، إذن سأعود، وفتت على باب القاعة أراقب
عن بعد ما يجري سمعت الشاب يصيح مبتعداً عن أبيه:

- أظنك تعتقد أن الله أعطاك ولداً عاقماً. لا تتساءل يا أبي، الأفضل أن تتذكر أفعالك. لقد اختارني الله ليعذبك بي، جزاء وفاقاً لكل ما قمت به من عمل غير أخلاقي طوال حياتك، وما فعلته مع أمينة بوجه خاص، لا بد أن تكون النتيجة الخذلان والخسران المبين.

- ألم تتساءل بدورك يا بني من أجل من قمت بكل ذلك؟ أليس من أجلك؟

- ماذا تفيدني مكاسب العالم كله بعد أن خسرتك؟
لم يتحرك أحد من الجالسين لتهدئة النفوس، اقتربت منه وقلت :
- لؤي .. تماالك نفسك فأنت أمام أبيك تذكر أن من فضائل النفس المؤمنة الرفق بالوالدين.

- أقول لي ذلك؟ أنت وأمثالك من الفجرة والكفرة عطلمت قوانين السماء، أين أنت ممن كانوا قبلك، لم يكونوا يخشون في الحق لومة لائم؟
- علينا أن نبحث عن الحق بحكمة، يكفيننا أن ننشده ونبشر به وننصره.

- لا يكفي، يجب أن نموت دونه.
مد الأب يده انتزع الفتاة من يد ابنه وطوح بها بعيداً بعنف فاصطدمت بي، اندفعنا سوياً إلى الورااء بفعل الصدمة، صاح الأب بانفعال مرعب:

- أعرف أن ما يقوله ابني نتيجة سمومك التي أفرغتها مثل ثعبان قاتل في نفسه. لقد عرفتك جيداً، نفس مملوءة خسة ودناءة ولؤماً، لا يهملك إلا المال، أخرجني قبل أن أقتلك.

وجدتها تلتصق بي، أذهلني وجودها بهذا القرب مني، إنها أمينة، فتاتي التي تركتني بحجة أنني إنسان لا أعرف كيف أعيش الواقع، ترى هل عرفت هي معنى الواقع؟ لماذا لا تجابه إذا كانت في وضع صحيح؟ قلت لها:

- إذن فأنت من كان الجميع يتكلم عنها قبل قليل، أنت من هربت مع هذا الكهل الثري ثم نبذك فاستبدلته بابنه. حقيقة ما قاله عنك، أي نفس بين جوانبك؟ أي أخلاق؟

ابتعدت عنها، فرأيت الأب يهجم عليها وعيناه تقدحان شرراً، فتصدى له الابن الذي نصب نفسه قاضياً ومنفذاً. اشتبك مع أبيه في عراك، كان الأب على ما يبدو يريد بالفعل قتل أمينة، فقد استبسل للوصول إليها، وكان لؤي يمنعه بالقوة. رأيت الأم تتقدم بهدوء نحو ابنها ثم تهزه بعنف قائلة:

- هل ستقتل أباك من أجل هذه الساقطة، ألا تعرف أن زواجك منها حرام وباطل؟

- لم يتزوجها، ما كان بينهما فاحشة وساء سبيلاً.

- لنفرض ذلك، كيف ترضى لنفسك زوجة مثل هذه؟ أفق من

غفوتك يا بني، واخش الله.

- أنا بالفعل أخافه وأخشاه، لقد أوحى إليّ أن الله سخرنى لتنفيذ العقاب، لن يمر ما فعله أبي دون عقاب.

- لم يثمر فيك كل ما فعله أبوك من أجلك، لم ترد الإحسان بالإحسان والحب بالحب كما يأمر الدين، ها أنت تجابه أباك بالجحود والقسوة.

- إنه المال الحرام، إنه الفسق والفجور، لقد تسلط على البشر وامتص دماءهم وقوتهم، لقد اعتدى قبل شهر على قاصر وقتلها واعتق نفسه من العقاب بماله وسطوته، وأغوى أمانة بما لوح لها به من زواج ومال فقلب حياتها رأساً على عقب، فهل يستطيع أن يفعل شيئاً ما في هذه اللحظة لينجو؟ هل سينفعه مال أو سلطة؟ لا أظن، لقد حكم الله عليه، وبيدي سأنفذ الحكم، ليس به وحده بل بكل هؤلاء الفجرة.
صاح أحد الحاضرين:

- من أنت حتى تحكم وتنفذ؟ أنت ابن عاق، إن لأبيك عليك حق الطاعة، محبته ونصرته حتى وإن كان ظالماً "وصاحبهما في الدنيا معروفاً".

- هذه مقولة ناقصة على غرار "لا تقربوا الصلاة" أيها المدعي الفاسق.

ضحك بسخرية وأشار بيده إشارة صغيرة فالتحم أصحابه مع ضيوف الحفل، لم نعرف من يناصر من، ومن يقاتل من، بقيت جامداً لا أعرف كيف أتصرف، كنت أتمنى أن أصور ما أرى، لكني أسجل

بالصوت الحي ما يدور من صراخ وعويل. صرخت أمانة وسقطت على الأرض مخضبة بدمائها، مدية طويلة مغروسة بين ضلوعها فوق القلب تماماً، قبل أن نعي شهقت عالياً وماتت.

لم يتأثر لؤي بما حدث، بل انسحب بهدوء إلى الخارج، ظننت أن الموقف سينتهي بخروجه، ولكن ثوان معدودة اشتعلت النار بكل أنحاء القصر، وصوت مخنوق يصيح " الله أكبر، الله أكبر، لقد أزهق الله الباطل على يدي، الحمد لله، الحمد لله"

بسرعة مذهلة اندلعت ألسنة النيران في كل الأرجاء، سدّت المنافذ، ثم اندفعت للداخل تشوي الوجوه والأجساد. كانت دقائق مذهلة، صراخ من كل حذب وصوب، لعنات تصب فوق الجميع، كلام بذيء يخرج من أفواه يائسة، إلى جانب صيحات استغاثة تطلب الرحمة من الله، الجميع يحاولون الإفلات من النار المستعرة، لسعاتها الحارقة تلطم الوجوه والشعر فتنشر رائحة شواء تتغلب على رائحة الدخان المنتشر في الجو، يتحول الصراخ إلى حشرجات مؤلمة ثم سعال مكتوم من الاختناق، كان هذا آخر شيء رأيته، سمعت أصواتاً من الشارع تصيح حريق كبير في القصر.

أفقت في المستشفى، والضمادات تلف وجهي وعنقي وأطرافي. لمحت وجه أختي، ما زالت في زينة عرسها وأخي هيثم مسنداً رأسه على طرف السرير يجعش في البكاء، وأمي المسكينة المفجوعة تتحسس

أطرافي المربوطة وتقبل ضماداتها. تذكرت ما حصل، سألت أختي بلهفة عن جهاز التسجيل الذي كان في جيبتي، ابتسمت مشجعة وقالت:
- لا تقلق، الأستاذ رشدي هو الذي أخبرنا عن وجودك في المستشفى وهو من روى لنا عن المهمة التي كلفت بها، أول شيء فعلته بعد وصولنا إلى المستشفى واستلامنا كل ما كان بحوزتك، تسليم الجهاز إلى الأستاذ رشدي. لقد نشر الخبر، كان سبقاً صحفياً كما أردت. المهم يا أخي أن تقوم بالسلامة.
- يا لسوء الحظ، لم أكن أريد ذلك.

مددت يدي لأتاول المجلة فلم أستطع، كانت ثقيلة جداً، كأنها ليست مني، صرخت، ودون وعي مني انتفضت من السرير محاولاً الوقوف، سقطت على الأرض من بين يدي أمي وأختي. عجزت عن الوقوف، هرع من خارج الغرفة أبي وبرفته عريس أختي وأبو ناجي، تعاونوا على حملي ووضعني بكل رفق وحب فوق السرير الحديدي الأبيض. انشغل الأطباء والممرضون في إسعافي، عادت الأسلاك الكهربائية والخرائط الدقيقة تحيط بسريري، وغرز سن الإبرة الدقيق في ذراعي، بدأ الدواء يتسرب لشرياني، أخذت نفساً عميقاً حين شعرت بوطأة الألم تخفف بالتدريج، ونعاس رقيق يتهدى حول أجفاني.

سوف أبقى عاجزاً، لن أعود كما كنت، خدر يتسرب إلى رأسي، صوت أختي التي كانت تقرأ التحقيق المنشور تحت اسمي وصورتني يتتعد يتلاشى، صوت الأستاذ رشدي الواقف بجانبني يأتيني من بعيد

يهنئني على السلامة ويواسي أمي وأبي. لم يكمل الحديث يبدو أنه لاحظ
همود حركتي ولمح يدي تحاول الوصول إليه فلا تقوى على الحراك.
"يبدو أن النار أتت على كل شيء، على المذنب وعلى البريء"
قال وهو يغادر غرفتي، سمعته وتبتهت من جديد للنار التي بداخلي،
وللحروق التي تركتها النار الحقيقية التي أشعلها لؤي وفتكت بالأموال
والناس.

جزر.. بلا شواطئ

كان اليوم طويلاً، كئيباً وحزيناً. جاءت تباشير الهم الوشيك مع مجيء الصباح. استيقظت وثقل يجثم فوق صدري، ومع ذلك لم أبال، بدأت في تجهيز نفسي استعداداً لمصاحبة المحامي نادر إلى المحكمة لاستجوابي في قضية صالح.

كان الاستجواب روتينياً، لم يتعد ما سئلت عنه مراراً وتكراراً في الشهور الماضية. القضية لم تعد قضيتي أو قضية صالح، فقد أوسع نطاقها، أصبحت تثار في المحكمة، في الشارع، في الصحف والإذاعات، تزداد تفاصيلها يوماً بعد يوم. شخصيات مرموقة ظهرت في الصورة، صالح المتهم المنفذ لكل العمليات المشبوهة مازال فاراً ومختبئاً في مكان أعده له صديقه نادر محامي خصمه.

خرجت من باب المحكمة برفقة نادر محرجة، أنفقت يمناً ويسرة، انحنى وهمس برجاء أن أتماسك وأنتظره في مكان ما خارج دار القضاء.

هزرت رأسي موافقة، أجلسني في مشرب قريب وطلب لي مشروباً ساخناً
وعاد إلى المحكمة.

جلست في مكاني وكأني ثقل من الرصاص الهامد بلا حياة بلا
روح. في لحظة غريبة، انتفض شيء بذعر في داخلي، هببت واقفة
فاندلق المشروب الساخن فوق ثيابي. كان النادل يحاول تنظيف الطاولة
والأرض بينما كنت أحاول تنظيف ملابسي وتهدئة نفسي وزجرها ألا
تحملني فوق ما تطيق. عدت لجلستي، وقبل أن أمد يدي لتناول الكوب
من أمامي عادت الانتفاضة بشكل أشد، وضح الأمر، تأكدت بأنها
حركة دبب الحياة في أحشائي.

انتشرت في كيانني قوة غريبة، أشعلت فتيل حياتي الذي كان آخذاً
في الخفوت يوماً بعد يوم منذ هروب صالح. دفق لطيف من العطف
الإنساني سرى في شراييني، حررني من ثقل همي وثقل قلبي وجسدي،
وشغلني عن كل ما حولي ومن حولي، نسيت المحكمة وما يجري فيها.
تنبهت من دوامة الحبور التي غرقت بها دقائق على يد متسول
ممدودة طالباً صدقة. التفت نحوه ووجمت، كان صالح، لم يخف عليّ،
عرفته، رغم ملابسه الرثة، وأنا التي لم اعتد رؤيته إلا وهو في أناقة أرقى
دور الأزياء. أحزنني بأنني لم أراه أكثر من متسول، لم أشعر تجاهه بأي
عطف. ارتجفت وابتعدت إلى الخلف بشكل تلقائي، لكنه استمر في
الاقتراب مني حتى لامس أذني وهمس:
- أصحيح خبر الحمل الذي بلغني؟.

لم أرد، أشحت بوجهي بعيداً. نهره أحد العاملين في المقهى وأمره بالابتعاد وعدم مضايقة زبائن المحل. ابتعد قليلاً ثم عاد هامساً من جديد:

- من هو أبوه.. هيه؟ أنا لم أنجب هذا العمر كله كما تعرفين. نظرت نحوه باشمئزاز، عاد العامل نفسه وأمسكه من كتفه وألقاه بعيداً على الأرض، وقف بسرعة واستعاد توازنه، وأخذ يرقبني عن بعد. تأملت شكله باستغراب، شاخ كثيراً، كأن شهور غيابه القليلة كانت سنوات طويلاً عجافاً.

وقفت سيارة نادر بالقرب من الباب، اندفعت نحوها مسرعة، قطع صالح عليّ الطريق وسألني:
- أهو أبوه؟

تمنيت أن أصفعه، لكنني تذكرت موقفه وظروفه، ابتلعت الإهانة ورددت على همسه قائلة:

- ماذا نفعلك المال يا صالح؟ ثروتك الحقيقية هنا في بطني، لكنك لن تهناً به.

قال بصوت مرتجف:

- لا يا أمل.. أرجوك احتفظي بالجنين وإن لم يكن ابني. لا تقتليه، لا تأخذه بجريرتي، إنه أمل عمري، إنه أمل عمري.
- تعذب.. ما أمتع أن أراك في عذاب. ما ينتظرك أشد لو تدري.

ألقيت بنفسي على مقعد السيارة وكياني يرتجف مما سمعت ورأيت. سيعيش عذاباً لا يوصف. أي عذاب أمر من أن تتحقق أمنية نرجوها بعد أن يؤسنا منها وأدركنا لها ظهرنا وسرنا في الاتجاه المعاكس نبحث عن بديل؟ لقد تحققت أمنيته العظيمة.. لكن بعد فوات الأوان. لن يبقى له ولد، أبداً لن يبقى.

أثناء العودة إلى البيت وعلى طول الطريق لم أتكلم ولم أسأل، كنت منساقاً إلى آخر مدى ممكن أن يصله عقل مجهد، وقلب مضن، ونبض جنين مطالب بالحياة. سرد نادر لنصوص حيثيات الحكم، لم يخرجني من شرودي، وصلنا إلى البيت وقبل أن أترك السيارة قال:

- أمل لم أعد قادراً على تشجيعك على الصمود، حيثيات وقرائن كثيرة ضده، ماذا أفعل أكثر من أن أرفض تولي القضية لحساب نبيل مع أنني محامي شركته منذ سنوات؟

لم أرد، كنت في واد آخر أبعد كثيراً من الأدلة الدامغة التي جاءت ضده أو معه. أنا الآن متهمه بتهمة أشنع من كل اختلاسات الدنيا، أنا الآن مدانة وممن؟ من الإنسان الذي ألقيت إليه بنفسي عن طيب خاطر لأصلح بوجودي بجانبه ما فسد من حياته.

وقف نادر أمام باب البيت منتظراً مني كلمة ما، فسألته بتردد:

- ما تهمة؟

رد نادر بأسى:

- تهم كثيرة. والغريب أن الأوراق التي وجدوها في مكتبك هي التي أدانته وأثبتت التهم عليه. يدير شبكة تزوير كبيرة لكل ما يخطر على البال. تزوير أوراق مالية، جوازات سفر وأختام دول أخرى، شهادات من جامعات معروفة.

- ما علاقة الأستاذ نبيل بكل هذا؟

- لقد استعمل جزءاً من مخازن شركة نبيل مقرأً لممارسة نشاطات الشبكة. هل كنت تعرفين بأنه يمارس أي نشاط في المخازن؟
- كفى نادر أرجوك لم أعرف ولا أريد أن أعرف. لقد انتهت حياتي وحياة طفل بريء لم يولد بعد.

دخلت إلى البيت وصدى صيحة التوسل المكبوتة تتردد في كل كياني "إنه أمل عمري" لكنها لا تصل قلبي. فحيحه الوقح "هل هو أبوه" يجلد عقلي الكليل ساخراً من طول انتظاري العقيم، من قوة التحدي الأعمى الذي واجهت به العالم أجمع بمن فيهم أبي.

مزقت دقات الساعة المتلاحقة الرتيبة هدأة ليلتي الحزينة تعلن انتصافها. كأنني عدت من غيبوبة، عاد فوران الخوف الذي لم يكد يهدأ أشد مما كان، هوى قلبي بين ضلوعي، تلاحقت أنفاسي، وغصت في لجة الأحزان من جديد. ها قد مرت ساعات طويلة عصيبة من حياتي، أصبحت جزءاً من صفحات أيامي الماضية، لكن كم سنة أحتاج لأتخلص من آثارها ونتائجها؟

أفرجت عن جسدي المكوم منذ أمس فوق ساقِي المطويتين
تحتي، تحسست وجهي المدفون والمغسول بدموعي فوق مسند الأريكة،
كان متورماً من بكائي المتواصل. شعرت بإعياء شديد وعزوف عن كل
ما حولي، عدت للبكاء من جديد.

احتضنت بذراعي نفسي لأضم جنيني النابض بالحياة في أحشائي.
غمرني حنان غريب جعلني أكثر إصراراً على فعل ما انتويت. أجلت
الطرف فيما حولي، كنت منكمشة في ركن صغير من البيت الكبير
الهائئ الساكن. لم أكن بأكثر من نقطة تائهة في هذا الصمت المخيف،
كان صمته أشد وطأة على قلبي من تقطع نشيج بكائي بين فترة وأخرى.
وكان هدوؤه كاذباً، لا يشبه إلا هدوء بيت حم عليه قضاء الله وبانتظار
موت وشيك لشخص عزيز، مسجى أمام الجمع الواجم.

"خمس سنوات سجن مع النفاذ والحجز على كافة الممتلكات"
كلمات نص الحكم الذي كان يتداوله القاضي مع بقية أعضاء المحكمة
المعقودة لإنهاء التحقيق والاستجواب في تلك القضية. ربما حكم كهذا
يحقق عدالة أقرتها الهيئات والقرائن التي بين أيديهم. المحامي نادر
نقلها لي بأمانة، متوخياً الحياد ما استطاع. لأول مرة منذ حلت الكارثة
أحس في صوته رنة شك وارتياب في براءة صالح. حقائق ووثائق دامغة
عرضت أمامه في المحكمة تغلبت على إيمانه المطلق بأخلاق صديقه
الذي لم يعرف عنها ما يشين على مدى ثلاثين سنة كاملة، عمر
صداقتهما.

كلمات قليلة تتردد في عقلي وتكبر، يتردد صداها في أنحاء البيت،
تأتيني من كل زاوية، حادة باترة، تقطع علاقاتي بالأشياء بالأحداث التي
عشتها بالأمس والآتية في الغد. أكاد أفقد عقلي، ليس من عدد السنوات
أو خوف الحجز على الأموال، فما كان شيء مثل هذا ليزعزع قدرتي
على الاحتمال والانتظار، أو يتغلب على تعليلي لغيابه الذي ابتدعته
لنفسي وعشت عليه الشهور الفائتة، لكن.. الحكم المعلن بحد ذاته يعني
ثبوت الإدانة، وأنه ليس في الأمر لبس أو غموض.

"إنها النهاية" ارتجف قلبي، وتجمد عقلي، وتسلسل الصقيع إلى
عظامي. تلك الأيام العصيبة عايشتها كمن غفا لحظات ثم صحا على
جلبة نصب مشنقة له أمام سمعه وبصره، وسبق مغمض العينين ليصلب
عليها إلى يوم الساعة، "نهاية مرعبة، ضاع كل شيء".

تناولت كأس الماء المليئة من فوق المنضدة أمامي ورشفت منه
بضع رشفات أبلبل بها شفتي المحترقتين. لمعت أمام عيني نقوشه
الجميلة تتداخل بينها أحرف اسمي بخطوط ذهبية "الأمل" كما كان يحلو
له أن يناديني..

ضاعت كل معاني اسمي، اختلطت أحرفه وتاهت بعد إعصار
الغفلة، ربما أصبحت الألم الذي سيلازمني بقية سنيني. لقد سقطت دون
رحمة بين يدي شيطان مريد، طوى عمري الطري طياً عشوائياً، خلط
حقب عمري بعضها ببعض، بالسهولة ذاتها التي يخلط بها لاعب ورق
محترف أوراق لعبة ستبدأ.

في لحظتي القاتلة هذه، أتطلع حولي فأرى برؤية جديدة كل ما حولي، أراه بعين جديدة ورؤية جديدة وعلى حقيقته، وأعرف قيمته المادية الكبيرة. اقتناء مثل هذا الكم وهذا النوع لا يتم دون غاية، ويجب أن تكون الغاية تافهة مثل الرأس الذي فكر بها، أعظمها على ما أعتقد استعراض إحدى القدرات. اعتقد بأن الاهتمام بالقيمة المادية للأشياء لا تتأتى للإنسان إلا في حقبة متقدمة من العمر، تأتي مع استقراره، العاطفي، العائلي، العملي، والاقتصادي. تأتي مع تسلل الملل إلى نفسه.

قبل شهر فقط لم أكن أتخيل بأنني سأفكر بمثل هذه الطريقة التي لا تخلو من فلسفة المجريين، أو بأنني قد أكون واحدة منهم قبل أن أعيش تجاربهم وحياتهم بكل ما فيها من نجاح وفشل. كنت قبل هذا الإعصار أعيش فرحة بشبابي، كلي حيوية وتفتح للحياة وللحب، فرحة بحب هذا الإنسان الكبير الرائع لي. حب أطربني، جعلني عملاقاً يطاول رأسي حجب السماء. لم أفكر بما يملك وبما يمكن أن يكون عليه البيت الذي سأسكنه. كنت مزهوة به وبنفسي، تحديث كل من يفكر في فرض رأيه ورؤاه في تقرير مصيري. وفجأة.. نعم فجأة انقلب الحال وخاب ظني.

لا أعرف متى بدأت أعيش حياة صالح وأيامه متجاوزة سنين عمري بقفزة واحدة إلى عمره. صالح الرجل الكبير الناضج والمجرب. صال وجال في الحياة، حقق فيها النجاح تلو النجاح، صار مثار إعجاب كل من يتعامل معه. أبي صديقه الحميم وأحد هؤلاء المعجبين بكل ما يقوله

أو يفعله، كان يعمل تحت رئاسته في البنك المركزي الذي كان يتولى فيه منصب وكيل المدير العام.

حين ابتدأت علاقتنا تأخذ طابعاً جديداً غير العلاقات الأسرية، أعني زمالة العمل أو رئيس ومرؤوس، كان يكلمني كثيراً عن نجاحه، مستحضراً خبرات سنوات عمره بخيلاء تحس معها وكأنه لا يعاني في حياته أي مشكلة أو إخفاق ما. لكن بعد أن تلازمنا في العمل شهوراً طويلة، بدأ يحكي لي عن الإخفاق في حياته، تغيرت لهجته، أصبح فيها لوعة، يتحسر على طفل يملأ عليه أيامه حتى مماته، فيبكي أمامي مثل طفل مهزوم.

كيف أرى الأمور الآن، كأنني كبرت بفعل فاعل، تماماً مثل تقاحة على غصن شجرة مجنونة، حقنت بمواد كيماوية فضجت قبل أوانها، لكن من يتذوقها يعرف أنها بلا طعم ولا رائحة. كذلك بقيت أنا على خوائي، أتخبط بلا تجارب بلا علم بلا معرفة.

لقد أدركت أن قلة حيلتي وقلة خبرتي في معالجة المشاكل التي اعترضت حياتي مبكرة سبب معاناتي بمثل هذه القسوة، لم استطع أن أفكر بالطريقة التي يطلب مني نادر أن أفكر بها. كنت مثلاً أحسب أيام منفاي وغيابه ساعة بساعة، آه ما كان أطولها وأمرها. ازدادت طويلاً ومرارة حين راودني شك بكوني حاملاً وبانتظار جنين، نبضة واهنة أعلنت عن بدء تخلقه ومشاركته في كرنفال الحياة. كم فرحت وجزعت، ستنتهي دورة الأيام وسيأتي وسيبدأ دنياه، هو لا يدري أن بداية عمره

موصولة بنهاية حبل سري قصير، وصله أب غاب وستقطعه أم لا تريد له هذا الحضور الناقص.

تركت مكاني هاربة من نار قلبي وعقلي، تنقلت في أرجاء البيت، مازال جسمي مثل قالب من طوب لا سلطة لي عليه، متوتراً يأتُر بأوامر لا أعرف من أين تأتيه. أنتقل حيرى مذعورة..أجلس هنا وهناك، والفكرة ذاتها تراودني.

أضأت الصلاة، أسندت ظهري للحائط وأجلت طرفي بكل ما حولي، تنهدت بحرقة من أعماقي. شعت الأضواء هنا وهناك، تساقطت الظلال كشلال متراقص، تتلأأ كل الأشياء ألامسها بيدي وبعيني. الثراء الفاحش، ما زال دفع ثمنه جارياً. لماذا لا يتكلم ويتحدى السكون والصمت، الخوف والحزن، يتحدى هذا الموت. لرجع صدى معاناتي لغة لا تفهمها مثلي، لغة باردة صماء جافة، لغة الأرقام، لغة المزداد والبورصة، لغة المال، لغة التجار، لغة اللصوص وأصحاب الكسب السريع.

راحة يدي تحتضن جنيني بحنان، سجينى الرابض هناك، لا يعرف كم هو مرغوب فيه، وكم هو مرفوض في الوقت ذاته. لا يعرف بأن اتخاذ قرار إعدامه القاسي صدر من قلبي أنا، أنا أمه، ولن يعرف أيضاً، أن بتفذي القرار أكون قد قتلت نفسي مرتين.

عدت للجلوس تحت الثريا الكبيرة المتدلّية من السقف استجدي منها بصيص نور لقلبي المنقبض فلا أحظى به. كالمنومة اتجهت نحو خزانة

الأدوية، أعبت بمحتوياتها، أجمع براحة يدي كل دواء محذور على المرأة الحامل تعاطيه ضماناً لسلامة الجنين. التحذيرات هي ذاتها حبل المشنقة الذي سيتم فيه تنفيذ حكم إعدام جنيني.

عدت إلى غرفتي، بيد مرتعشة بدلت ملابسها، اخترت كفني وكفن جنيني، كان ثوباً طويلاً ناصع البياض، كأني عروس أزف للموت، كان معداً لأرتديه أول ليالي حياتنا معاً في بيتنا الجديد، لكن من سوء حظي أو سوء حظ ابني كانت ليلة مهولة، هرب صالح، ودخلته وحيدته.

"إنه أمل عمري" دوت صرخته مع تناولي الدفعة الأولى من الحبوب القاتلة، لا تقتليه أرجوك.. أرجوك.. لن استجيب لصرخته، ليست أكثر من طنين فارغ، من قلب إنسان مراوغ، مددت جسدي فوق الفراش، رافعة رأسي على حافة السرير لتسهل عملية الابتلاع حبة بعد أخرى. ما أن أبتلع واحدة حتى أضغط على بطني ليستيقظ الجنين النائم. أثر بجديث يطول، هلوسة امرأة لم يبق لها من الأمر شيء.

لم تهدأ صرخة صالح، ما زالت طويلة موصولة بين شفثيه المحترقتين وأذني اللتين لن تصدقا بعد اليوم كلمة واحدة تخرج من هاتيك الشفتين اللتين دمرتا حياتي. أردد دون وعي سؤاله العبقري "هل هو أبوه" الحمد لله بأن الأجنة لا تفقه ما يقال.

اندفعت أحكي.. وأحكي.. وأحكي. صرخة صالح تملأني، وحركة الجنين المودعة تؤلمني. كنت مستمرة في الكلام، مستمرة في ابتلاع الحبوب، فلم أنم ليلتي كلها. تتداخل الأصوات والوجوه، لكن وجه صالح

الحزين وحديث روحه المكتوم الذي أسمع به بوضوح قد طغى على ما سواه. أكاد لا أصدق أن هذه الأحداث المهولة كلها مرت خلال شهور قليلة وليست أعواماً طويلة وقاسية. أغمضت عيني وأرحت فكري المكدود. اندفعت راكضة ألهث وراء أيام هاربة ألملمها، أطارده صوراً من ماضٍ حكم علي بأن أعيشه مرتين.

صباح جميل ذلك الصباح، كنت أسير بخطوات جذلي طروب متجهة إلى عملي، شأن بنت في السابعة عشرة من عمرها، مزهوة بنفسها وببتله ذاك الرجل الكبير المقام في حبي.

وصلت الشركة، اتجهت إلى مكنتي وتحيات الصباح تنهال علي من كل صوب، فقد كنت مدللة الجميع. كنت أصغر العاملين في الشركة سناً، وابنة أعز أصدقاء صاحب الشركة. أوزع محبتي واهتمامي على الجميع كأنهم أفراد أسرتي. وأخلص للشركة وصاحبها بكل كياني.

خلعت الجاكيت عني استعداداً لبدء العمل في يوم جديد، وكالعادة ومنذ شهور طويلة، ألقيت نظرة فضول سريعة عن بعد على المكان الذي اعتاد صالح أن يترك لي قفاصة ورق صغيرة قبل أن يغادر عمله المسائي في الشركة، كان يكتب عليها "راجعني صندوق البريد".

وقعت عيناى على القفاصة، ألقيت بالجاكيت جانباً وهرعت مسرعة أستخرج الرسالة من مخبأها، سحبت الورقة المبرومة والمحشورة بدقة في ذاك المكان الضيق بمنتهى الحرص.

كانت يدي تشدد على الرسالة الصغيرة بينما اليد الأخرى تقوم
وبسرعة بإجراءات أمن ضرورية قبل الاستغراق في كلمات الحب والوله
المطولة التي أصبح يبثها لي يوماً منذ تطورت مشاعره إلى هذا القدر
من الهيام.

أغلقت باب مكتبي بإحكام وجهاز الديكتافون الذي يصلني بمكتب
المدير مباشرة، في تلك اللحظة رن جرس الهاتف، رفعت السماعة أجبت
باقتضاب وأغلقت الخط. أعيد الاتصال مرة أخرى، كان الصوت ذاته، لم
أعره الاهتمام اللازم، رددت بغمغمة غير مفهومة، تركت سماعة الهاتف
مفتوحة على المكتب أمامي وتهيأت للقراءة.

فوجئت، الرسالة مختصره جداً، كأنها كتبت على عجل، أو بعد
تردد وحيرة.

" أمل لقد اتخذت قراري، سأزورك الليلة في بيتكم، حاولي أن
تلمحي لوالدك أو لوالدتك عن سبب هذه الزيارة. انتظريني في مكاننا
المعتاد حال خروجك من العمل مساء "

جلست إلى مكتبي مبهورة الأنفاس، يعلو خفقان قلبي على كل
صوت من حولي. تسلل الخوف من قلبي إلى عقلي. وسقطت في هوة
بعيدة جداً عن كل من حولي حتى تنبّهت على صوت المدير يصيح
"أمل" كأنه خارج من أعماق تغلي، تلجلجت، فتحت الخط بسرعة بيننا،
انقض صوتته كالصاعقة صائحاً:

- أين أنت يا أنسة. أطلبك منذ نصف ساعة، تعالي حالاً.

لملمت أوراقى بسرعة، نظمت هندامى، وتركت على شفتى ابتسامة العمل الرسمية ودخلت عليه. أملى رسالته ثم قال:

- اطبعها على الكومبيوتر حالا وأتيني بها لتوقيعها. أريدك أن ترسلها بعد الظهر إلى الشركة المتحدة دون الرجوع إليّ إذا لم تأتينا موافقتهم على عرضنا طوال فترة الصباح.

هزرت رأسى وخرجت مسرعة. أثناء طباعتها لاحظت كم كانت لهجتها جادة وقاسية إلى حد المبالغة. كنت أعرف بالطبع أهمية الموضوع المعلق بينهم. تذكرت الصوت الذي رددت عليه مرتين قبل أن أترك الخط مغلقاً وأغوص وراء كلمات الرسالة كان صوت سكرتير الشركة المتحدة فأنا أعرفه جيداً.

فتحت باب الإدارة دون استئذان قائلة:

- آسفة يا أستاذ نبيل لقد اتصلوا من الشركة المتحدة منذ الصباح أكثر من مرة.

- أكان هذا قبل حضورى؟

- لا أعرف لكن بعد وصولى بقليل.

- ولماذا لم تخبرينى، لماذا لم تعطنى المكالمة إذن.

لم أجد ما أرد عليه، صاح بوجهي معنفاً:

- ما الذى حصل يا آنسه، كنت أكفاً سكرتيرة عرفتها فى حياتى، كنت أشكر الظروف كونك ابنة أعز أصدقائى ليقع اختياره على شركتى

لتعملي بها. عودي لمكتبك فوراً واتصلي بالشركة المتحدة واعتذري لهم
بأنك سبب تأخرنا بالرد، ثم حولي المكالمة إلى مكنتي.

نفذت ما طلب مني، لكنني أبداً لم أستطع السيطرة على نفسي
واستعادة كفاءتي وحضوري. بقي عقلي سارحاً وراء سري الذي احتفظت
به لشهور طويلة وسيفضحه صالح في هذه الليلة لأبي ومن ثم لكل
أصحابهما، مديري نبيل، ومحامي الشركة الأستاذ نادر صديق الجميع
بمن فيهم أبي. صوت المدير مرة أخرى يعيدني إلى الواقع، كان غاضباً
إلى درجة السخرية:

- أين عقلك اليوم يا أمل.. ألم أطلب منك ملف الأستاذ كامل؟

- آسفة يا أستاذ، دقيقة واحدة فقط.

ناولته الملف دون أن أجرؤ على النظر إليه، أحسست نظراته

الغاضبة سياتاً تجلدي، لا حظ ارتباكي فسألني بتهكم:

- أنسة أمل ألم تنامي ليلة أمس في بيتكم فقررت النوم هنا، آسف

أن أخبرك أن هذا مكان عمل لا مجال فيه للسهو والخطأ، المسألة فيها

خراب بيوت. أنت ابنة صديق عزيز، وصالح الذي زكاك للعمل هنا

صديق عزيز أيضاً، لكن لا تؤخذ الأمور هكذا. ما الذي جرى لك؟ كنت

تقومين بعملك خير قيام، ثم تغيرت منذ شهور، كنت أحاول أن أجد لك

الأعذار، لكن الأمر أصبح لا يحتمل.

لم أجب، سألت دموعي بغزارة، أكثر مما يستدعي الموقف.

استرسل كلامه بلهجة أشد قسوة:

- أظنك تعتقدين بأن صلتني بأبيك ومكانة صالح عندي يعفانك من الالتزام بجدية العمل، هنا لا يصح هذا الكلام. قد أجد لك العذر إذا ما عرفتني سبب قلقك. لا عليك. سأقدر هذه المرة ولكنها الأخيرة. اتصلي بصالح في مكان عمله واطلبي منه الحضور. حال حضوره يمكنك إعفاء نفسك من العمل اليوم. الآن عودي لعملك وانتبهي.

لم أعر على صالح في أي مكان، وطبعاً لم يسمح لي بترك العمل قبل نهاية فترة العمل الصباحية التي لم تقتر، قدمت أقصى ما أستطيع ومع ذلك استمر الأستاذ نبيل في أشد حالة الثورة عليّ وعلى صالح.

وصلت إلى البيت قبل موعد الغداء واتجهت مباشرة إلى المطبخ، دون أن أنادي أمي كالعادة. كانت منهمة في إنجاز اللمسات الأخيرة لوجبة الغداء الوشيكة. دهشت حين رأيتي أجلس بعيداً عنها ساهمة أفكر في الطريقة التي أبلغها بها رسالة صالح. فهمت أمي أن في الأمر شيئاً جديداً، نظرت نحوي بحنان ولامست وجهي المحتقن. قالت مداعبة:

- يعني دخلت البيت ووصلت المطبخ دون أن تتادي ماما بطريقتك الطفولية التي أحبها والتي لم تتبدل رغم أنك أصبحت موظفة. لم أرد، غلبتني مشاعري، طفرت دمعة من عيني من رافة قلب أمي، أراحت رأسي قرب قلبها وهي تتساءل:

- خير إن شاء الله، لقد أروعبتني ماذا في الأمر؟

حدثتها بكل ما جرى اليوم في الشركة دون التطرق لموضوعي مع صالح. تهتدت بارتياح واطمئنان، وعادت لعملها وهي تقول:

- لا أعرف كيف رمى بك أبوك إلى عمل أكبر من احتمالك، كيف طاعه قلبه وأنت في هذه السن الصغيرة على قبول فكرة العمل. لكن أعود وأررد قوله، إن محبته لأصدقائه ووفاء كل منهم للأخر شجعه على أن يأتهم عليك في بداية حياتك العملية التي أصرت على بدئها في هذه السن الصغيرة بعد نفورك من إكمال دراستك. لا أخفي عليك بأنه تردد في بادئ الأمر خوفاً على الصداقة التي تربط بينهم منذ ثلاثين سنة.

ابتلعت ريقي بصعوبة بعد سماعي هذا الكلام، مخاوف أبي كانت في محلها إذن. ازداد ترددي، تملكني الخوف فعزفت عن الموضوع. دخول أبي إلى البيت عائداً من عمله ظهراً يكون عادة إيذاناً ببدء وجبة الغداء. التفتنا جميعاً حول المائدة في جلستنا الودية التي نحبا ونحرص عليها. نتسامر ونتندر فيما حصل مع كل منا أثناء غيابه عن البيت. تذكرت أمي أن تروي لهم ما حصل معي في الشركة اليوم، التقت أبي نحوي قائلاً:

- أمل .. أ تتعاملين مع نبيل أو صالح أو نادر في العمل بالطريقة ذاتها التي تتعاملين بها معهم كأصحاب أبيك.
- طبعاً لا يا أبي.. أنا دي على كل منهم هناك بالأستاذ كما طلب مني الأستاذ نبيل في أول يوم من أيام العمل.
رأيت الجميع ينظرون نحوي بانتظار المزيد فقلت:

- أول يوم في العمل أردت أن أستفسر عن شيء فقلت عمو نبيل هل.. يا لطيف الطف، لم أكمل السؤال، وقف طويلاً ناظراً إليّ بعبوس ثم قال بصوت جديد عليّ " هنا مكان عمل يا أنسة، حين تحاطبين أياً منا قولي أستاذ.. مفهوم"

ضحك الجميع على حركاتي التمثيلية التي كنت أقلد بها المدير، على الرغم أنها ليست المرة الأولى التي أروي لهم فيها حكاية اليوم الأول في عملي. أعاد لنفسه هذا المرح العائلي بعض الهدوء، فاستعدت رغبتني في إعلام أمي بزيارة صالح. تعمدت بعد انتهاء الغداء أن أبقى معها بحجة مساعدتها في تنظيف المائدة. قلت بصوت هادئ:

- أمي.. سيزورنا الليلة الأستاذ صالح.

انتظرت الأم بقية الكلام، لكنه بقي مبتوراً، قالت:

- منذ زمن طويل لم يزرننا. وحده؟..

غمغمت بصوت خفيض:

- وحده..

عادت أمي تنتظر بقية الحديث، لم أكمله، فررت من المطبخ.

لحقت بي وهي تقول:

- لعله سيشكوك لأبيك، لا بد وأنت لم تخبريني بالحقيقة كاملة،

فالأمر على ما يبدو أكبر بكثير.

لم أجب.. لكنني هزرت رأسي نافية، ثم أتبعتها بابتسامة خجولة. لم تفهم أمي بأن الأمر فعلاً أكبر، بل ولربما كان أخطر. كيف سيخطر على بالها شيء كهذا، وإن قلته لها هل ستصدق؟ هل ستقف إلى جانبي إن عرفت مدى إصراري؟

مضت فترة ما بعد الظهر وكل واحد منا معتكف في غرفته للراحة، فجأة وجدت أمي فوق رأسي تقول بمرح كمن اكتشف سر أسرار الكون:
- لقد جاءتني فكرة وأنا في غرفتي، ما رأيك أن تذهبي إلى الشركة قبل الجميع وتحاولي إصلاح ما أفسدته في الصباح فلا يجد الأستاذ صالح ما يشكو منه لأبيك حين يحضر.

أعادني حديث أمي إلى ما كنت عليه من غم. حين وجدتها تود مجالستي قررت الهرب، قفزت من السرير مدعية الموافقة على الذهاب. لم أذهب إلى العمل، بقيت هائمة في الشوارع أستعد للموقف القادم، أرسم صوراً، أستحدث حواراً، ألغي الفكرة من أساسها. ماذا سيحدث في هذه الليلة من كوارث همست لنفسني وأنا متجهة إلى مكان موعدني مع صالح "علم ذلك عند ربي".

سرت عبر طرق فرعية اعتدت أن أمر بها لأصل إلى مقهى صغير يتصدر نهاية طريق ضيق ومسدود. كنا نشعر فيه بالأمان من أن يرانا بعض معارف صالح وبالطبع سيكونون من معارف أبي. حين دعاني صالح للخروج معه إلى مكان ما أول مرة صعقت ورفضت بإصرار. استغرب وسألني:

- ألم نخرج سوياً عدة مرات من الشركة أوصلتك إلى بيتكم أو إلى أي مكان آخر.

- كان الوضع مختلفاً. لن أخرج معك.

ومع ذلك خرجت معه مرات ومرات، كان يكفي أن يتألم أمامي حتى أذعن لمشيئته ولو كنت غير مقتنعة بما أفعل.

في البداية كانت الأمور تسير بيننا بشكل عادي، مشاعر الأبوة تغلب عليه في معاملته لي وهو يعلمني ما هو مطلوب مني وهو يشرح لي طرق التعامل مع الناس حسب أعمارهم ومكانتهم، كنت أتلقى منه بحب أبوي كبير وأتعلم بسرعة أذهلته فصار يمتدحني كثيراً ليس أمامي فقط وإنما أمام نبيل صاحب الشركة وصديقه وأمام كل العاملين معنا.

فجأة صار يشكو من نضوب حياته من العاطفة، وخاصة حرمانه من الأبوة الحقيقية. كان الألم يعتصره فأدهش، كنت أراه أكبر من الشكوى فكيف والدمع يطفر من عينيه. لم أتردد في مسح دمعته التي غالباً ما تقف فوق رموشه عصية أبية، فيعتذر عما يسبب لي من ألم.

لا أعرف متى تطورت مشاعره، صارت الأمور تجري بي، وكأنني في سباق مع عواطف مشبوبة لا قبل لي بها. لقد ظهرت بشكل مباشر حين عاد للعمل من إجازته السنوية. كنت أعرف من أبي أنه يقوم بعمله الإضافي في شركة صديقه نبيل إكراماً له وليس من أجل مال أو أي غرض غير محبة كل منهما للآخر.

بعد ثلاثة أسابيع عاد إلى عمله في الشركة، دخل مباشرة إلى مكتبي وبلهفة ظاهرة أمسك بيدي بين يديه، جذبني نحوه وقبلني فوق وجنتي قبلات سريعة. ظاهر الأمر كان يبدو عادياً، كثيراً ما كان يقبلني بهذه الطريقة أثناء زيارته لنا في بيتنا وبين أهلي. لم أحس بأنني كبرت عن ذلك ولكن أحسست بأن هذه المرة مختلفة، لم أعرف كيف؟ أو بماذا اختلفت؟ ومع ذلك كنت على يقين من إحساسي.

يومها تغاضيت بل واستكرت إحساسي، ولم أشأ أن أعكر عليه صفو عودته إلى عمله، كان في منتهى المرح والسعادة. كان الأستاذ نبيل يخرج بين فترة وأخرى مؤكداً مدى افتقاده الكبير له. تناسيت الموضوع وأخذت أعرض عليه ما قمت به خلال غيابه وخاصة فيما يتعلق بعمله. قبل أن أغادر الشركة في المساء قال:

- أمل استأذني أباك بأن يسمح لك بالتأخر ساعة أو أكثر في

الأيام القليلة القادمة ريثما استلم منك كل الأوراق المهمة.

كان طلباً عادياً لم يمانع أبي بل شجعني كثيراً، لعله فرح أنني أصبحت أشكل عنصراً مهماً في الشركة إلى درجة أن يحتاج شخص مثل الأستاذ صالح بنفسه مساعدتي. لكنه في الصباح أضاف شرطاً، أن يوصلني صالح إلى البيت بعد انتهاء العمل.

في الليلة الأولى لم يكن يعمل بقدر ما كان يثرثر بكلام يأتي كيف ما اتفق. في الليلة الثانية رأيت أنه قد صمت فجأة، ونظر طويلاً في عيني،

اقترب برأسه من رأسي، وبهمس ساخن لم أجد له ضرورة إذ لم يكن
غيرنا في الشركة في تلك الساعة المتأخرة من الليل قائلاً:
- هل افتقدتني في غيابي؟
- طبعاً..

عاد لصمته، استغربت صوت تنفسه المتلاحق المتقطع كمن كان
يركض لمسافات طويلة في فترة وجيزة، ظننته مرهقاً من العمل فأردت أن
أخفف عنه فقلت ممازحة:

- على الأقل لأتخلص من عبء عملي وعملك.
لا أعرف كيف انفجر الموقف أو لماذا، فقد قام من مكانه ومشى
نحوي بهدوء وتوقف خلفي، وضع كفاه فوق كتفي وضغط بشدة أمتني
وأفزعنتي، قال بصوت غير صوته:
- لقد افتقدتك كثيراً، أكثر مما تتخيلين.

سكت.. اقترب برأسه ثم أراحه فوق رأسي، تملمت ولكنه بقي على
هذا الوضع دون حركة دون كلام اللهم إلا أنفاسه ازدادت اضطراباً
وسخونة، قال وصوته يرتجف وكأنه على وشك البكاء:

- أمل.. حاولي أن تتفهمني ما سأقوله لك، لا تأخذي الأمر
ببساطة، فهو جاد وحقيقي. لم يعد لحياتي أي معنى دون وجودك
بجانبي. تقي بأنك إذا ما رفضتني سأموت.
- ماذا.. أنت صديق أبي و..

- لا تزيدني من تعذبي، فقد قتلت نفسي تفكيراً وتأنياً، ولكن الأمر خرج من يدي، كل ما أريده منك أن تعديني بالتفكير في الموضوع كما عرضته عليك، تذكرني فقط بأنك أصبحت حياتي كلها.

أعاد ضغطه المرتبك على كتفي، اجتاحت جسدي رعدة غريبة، أحسست بالحرارة المنبعثة من كفيه المرتعشتين. أول مرة أعيش إحساساً غريباً كهذا. أنهيت الموقف بوقوفي وإصراري على الذهاب إلى البيت. لم أحضر في مساء اليوم التالي إلى الشركة طوال فترة ما بعد الظهر، الفترة التي يحضر فيها عادة للقيام بعمله. استغرب أبي من وجودي في البيت فسألني:

- هل أنهى الأستاذ صالح عمله المتأخر.

أجبت بالنفي، فقال:

- هل استغنى عن خدماتك؟

قلبت شفتي باستخفاف، فصاح مؤنباً:

- كيف تتركينه وهو بحاجة لمساعدتك، هل هربت أم كذبت

وادعيت المرض؟

- لا هذا ولا ذلك يا أبي، أردت أن أعطي نفسي راحة، غداً سأقوم

بعمل يتطلب مني جهداً كبيراً مع الأستاذ نبيل.

ذهبت إلى عملي صباح اليوم التالي، وجدت لأول مرة قصاصة

من الورق موضوعة بطريقة واضحة، مكتوب عليها ثلاث كلمات فقط

"راجعني صندوق البريد"

عرفت أن الخط هو خط صالح، لكن لم أفهم ما يقصد، ثم نسيت الموضوع تماماً وانهمكت في عملي. اتصل صالح، سألني عن أحوالي، وعن سبب عدم مجيئي في الليلة الماضية، رددت بغمغمة غير مفهومة. فجأة سألني:

- بالمناسبة ..هل رأيت صندوق البريد؟

فرحت كونه عاد إلى موضوع العمل وأعفاني من الشرح. فقلت:

- لم أعرف أي صندوق بريد تقصد.

- طبعاً لا تعرفين، من أجل ذلك اتصلت بك لأخبرك. على يمين مقعدك الجالسة عليه الآن يوجد قطعة بلاستيكية تغطي فتحة الماسورة الأسطوانية التي تحمل مسند المقعد، هل رأيته.

- نعم رأيته.

- افتحها بقوة، هل فتحتها؟

- نعم فتحتها.

- هذا هو صندوق بريدنا منذ اليوم، أخرجني من داخلها رسالتي

إليك.

ابتدأت تلك الرسائل اليومية تتوالى، كل منها كانت تحمل حياً أكبر وأغرب من الخيال، لن يصدق أنه وليد أسابيع ولا أنا نفسي صدقت. كتمت سري في قلبي، لم أوافق ولكنني لم أرفض، حتى الآن لا أعرف لماذا. لكن أشياء كثيرة صارت تتخلق عندي، رأيت نفسي قد كبرت، تغيرت طريقتي في اللبس في الكلام في المشي. شيء يخص

المرأة الصغيرة بدأ يتفتح في داخلي. مع ذلك لم أقبل بالأمر تماماً لكنني لم أعرف كيف أرفضه. تحفظت قليلاً معه على الرغم من هذا الشعور المتنامي بنفسني الذي فجره بداخلي دون أن يدري، لم أعد أكلمه بالطريقة الودودة ذاتها، ولم أسمح له بالانفراد بي طوال شهور تلت ذلك الموقف. وكان يوم..جئت في الصباح الباكر إلى عملي كالعادة، وجدته جالساً مكاني، استغربت إذ ليس من عادته أن يأتي إلى الشركة في فترى الصباح. توجست خيفة، وقفت مبتعدة، لم أطرح عليه حتى تحية الصباح. كان متعباً مرهقاً كأنه لم ينم منذ أيام. نظر نحوي بحزن عميق وقال وفي عينيه أثر دموع:

- لقد أتيتك مستجدياً عطفاً ورحمتك، لم أعد أقوى على إعراضك، لم أعد أنام أو أقوم بعملني هناك أو هنا، الموت أهون عليّ ألف مرة من جفائك.

أدهشتني المشاعر التي عصفت بي، ابتهجت وفي الوقت ذاته استأثت. هل كنت بانتظار موقف مثل هذا دون أن أدري؟ هل كنت أرتقب حالة الانهيار الماثلة أمامي الآن دون أن أملك مشاعر ولو جزئية تضاهيها؟ هذا ما حصل، بقدر ما انتشيت، كان ثمة شي آخر بداخلي يلجمني بتعقل عجيب. قلت بهدوء أدهشني:

- ماذا أستطيع لك، سيقتلني أبي إذا عرف، ثم إنك متزوج. أرجوك يا أستاذ صالح اتركني وأبتعد عني.

- لا تقولي بعد اليوم هذه الأستاذة المقيمة. زوجتي لا تتجرب وقد طلبت مني مراراً أن أتزوج. كنت راضياً بنصيبي ولم أفكر بالموضوع مطلقاً، لكن ظهورك في حياتي أحيأ أمني من جديد.

انخرط في بكاء أليم، لم أر في حياتي رجلاً يبكي، لم أر أبي يبكي، بل كثيراً ما نهى أخي الصغير عن البكاء صارخاً بوجهه بأن الرجال لا تبكي. ماتت كل مشاعر الانتشاء والزهو الذي أحسستها فجأة، تملكني شعور آخر يكاد يوصلني للبكاء. ركع على الأرض أمامي وأمسك بيدي يقبلهما وهو ينتفض مثل طفل صغير انتزع من حضن أمه فتاه في حياة لا يعرف عنها شيئاً.

هدأت نفسي، فاضت في صدري شفقة طاغية عليه، لم لا أسعد أنساناً يرى في المنقذ من حالة إحباط يعيشها. ما كان أشقاني وأنا أبحث الأمر بهذه الطريقة الساذجة. لم أجد الأمر خطيراً أو خطأ، وعدته بأن أفكر في الموضوع، بل ورجوته بأن يعود لحالته الطبيعية، يهتم بهندامه ويعمله، قفز من مكانه واحتضنني وقبلني قبلة طويلة. هلعت من هول المفاجأة، إحساس طاغ ألم بي، كنت أقاوم شعوري بالاختناق الذي غمرني، وفجأة، رأيتني أتخلى عن المقاومة وأحلق في السماء كأنني ريشة عصفت بها رياح عاتية، أحاول أن أثبت قدمي على الأرض فلا أجدها، قوة أكبر مني هزنتي شلت حركتي، كل ذلك تم في ثوان معدودة، بدت أبدية، لا نهاية لها ولا بداية، صعقتني، فاستسلمت بكليتي.

وصلت إلى المكان بعد الغروب، كان صالح في انتظاري ربما منذ الصباح فقد بدا متوتراً أكثر مني. لم نطل الجلوس، سرنا صامتين بخطى وثيدة نتخبط في شوارع المدينة، كأننا فقدنا القدرة على تحريك لساننا الذي لم يكن يفتر. كسرت قيثارته التي تعزف بلا ملل النغمة المفضلة في سيمفونية حبه، حب يقرب من الاستجداء أن أقبله أو يقتل نفسه. ولا عدت أقوى على الادعاء بأنني أتقبله على مضض خوفاً عليه من تنفيذ وعيده بقتل نفسه. فجأة سألتني:

- هل هيئت الجو هناك؟ أعني هل أخبرت والدك عن سبب زيارتي

هذه الليلة؟

- طبعاً لا.. منذ شهور وأنا أتحاشى النظر في عينيه، أتعذب كلما

التقت عيناى بعينه.

- ماذا سيكون موقفك إذا رفض طلبى؟

- لا أعرف، أشعر بالخوف، أكاد أموت حين أفكر فيما سيحصل.

- إذن.. هيئى نفسك لمرافقة جنازتى إلى مقرها الأخير. أقسم

بأننى سأقتل نفسى. صدقت أم لم تصدقى.

غمر الأسى وجهه وامتألت عيناه بدموعه، أمسكت بيده وضغطت

عليها بحرارة قائلة:

- سأتبعك إلى آخر الدنيا.

هل كنت أعنيها حقاً؟ هل قلتها بدافع الحب حقيقة؟

الصمت مطبق في بيت أبي، العائلة واقفة كأن على رؤوسهم
الطير، وأبي يحدق في وجه صالح صديق عمره غير مصدق طلبه
الزواج مني. دوار خفيف يلف رأسي، أغمض عيني، أغيب في عالم ما
كنت أرجو منه شيئاً سوى إسعاد إنسان استجار بي من حرمانه وتعاسته
فأجرتة. راهن الجميع على أنه زواج فاشل، وحدي كنت أرى ما لا يرون،
فالأمر في منتهى البساطة، رجل وجد فيّ التعويض عن خسائر عمره
كله، فماذا لو أسعدته وكنت له. رأيتهم يعقدون الحياة بأفكار بليدة تخلو
من الإنسانية.

ظل وجه أبي جامداً مصعوقاً من طلب صالح، رفض مجرد بحث
الموضوع. تلوى صالح من الألم، رأيتة بعيني المدربتين على اختراق
قشرته الخارجية. من الطبيعي أن أتغلغل في أعماقه كلما أمرتني عيناه
المتميزتان أن أفعل. كنت واقفة بعيدة عنه ومع ذلك أحسست بكل خلجة
من خلجات نفسه، تمزقه وولفه وعذابه. من هنا كانت الحكاية، لكنها
ليست البداية.

ليتك يا جنيني تفهم ما أقول، قد تجد لي العذر في قتلك قبل أن
تولد.

كتم صالح ألمه وبدا محافظاً على هدوئه أمام هياج صديقه الذي
هو أبي. قال بصوت باتر:

- لماذا تصيح في وجهي هكذا؟ ألا تسألها أمراً يخصها؟ إنها
تحبني.

على الرغم من فجيعة أبي بصديقه وبابنته فقد نادى عليّ، حين
اقتربت منه رأيته يبتلع ريقه بصعوبة بالغة ثم يسألني بهدوء مصطنع:

- أ حقاً تحبينه..؟

فأجيب بصدق:

- لا أعرف!

يسألني بغضب مكبوت:

- إذن لماذا تتزوجينه..؟

أجيب مثل طفلة غريبة:

- يقول إنه بحاجة لوجودي معه، سيقتل نفسه لو تخلّيت عنه.

يسأل من جديد، ونبرات صوته صارت أشد قسوة:

- أهذا سبب كاف لأن تتزوج فتاة صغيرة مثلك من رجل في عمر

أبيها مثله، أتعرفين بأنه متزوج قبل أن تولدي؟

لا أجد الرد، أطرق للأرض باكية. فتح أبي الباب على مصراعيه

وهو يصيح به:

- ألا تتقي الله يا رجل، تغرر بابنتي وأنت تعرف بأنك لو رزقت

بالذرية منذ تزوجت لكان لك بنت في مثل عمرها. لقد خنتني لا أريد أن

أراك مرة أخرى. إياك أن تتصل بها، إنني أحذرك. بل إنها منذ الآن لن

تذهب إلى تلك الشركة الملعونة.

غامت الدنيا أمام عيني. يغيب صوت أبي ووجهه، فيحتل وجه

صالح المساحة كلها، دون كلام يعذبني، دون بكاء يشعرنني ببكائه،

أقترب منه على مرأى من جميع أهلي وأهمس في أذنه " لا تغضب أرجوك، لا تحزن، أعدك، لن أكون لغيرك" طيف ابتسامة لاحت على شفثيه لكنه أخفاها وحولها إلى نظرة ظافرة، صفع بها وجه أبي.

استعاد ملامح المذلة على وجهه، وامتلل لأمر الطرد بذل وانكسار. انخلع قلبي للطريقة المهينة التي خرج بها، انسحب من الباب المفتوح منقبضاً على نفسه كمذنب ضيظ بالجرم المشهود.

ينتفض شيء بنزق تحت يدي، أربت عليه بحنان أم ثكلى، أتناول مزيداً من الحبوب، أبتلعها مع كميات كبيره من الماء. أبكي.. أتكور على نفسي، أتمنى أن أستطيع الوصول إلى بطني لألثمه وأبعث بحبي إلى جنيني التعس، لقد نصبت مشنقته بيد أمه، أمه التي تربت عليه بهذا الحنان الخارق.

لحظة خروج صالح من بيتنا أصابني الخذلان. كأنني كنت أتوقع أن يخطفني من بين الجميع ويطير بي إلى بلاد الله الواسعة. هذا ليس خيال مراهقة بل هو من جنس الوهم الذي استولى به على عقلي، شهور طويلة وهو يلاحقني بحب عاصف مجنون واحتياج قاتل، مؤكداً بأنه على استعداد لمواجهة العالم في سبيل الحصول عليّ. كان يكره ضعفي وخوفي مما هو قادم، يتهمني بعدم النضوج والجنين من ممارسة حقي الطبيعي في الحياة.

أه.. يا صغيري الحبيب، لم أفرح بوجودك، لم أفهمه أكثر من أنه عبث القدر. عشرون عاماً انقضت من عمر أبيك وهو بانتظار تحقيق

هذا الأمل الكبير، أن يصبح أباً، سنة وراء أخرى. الآن وقد تحقق أمله، فأين هو؟ أليست سخرية الأقدار.

ثورتني على نفسي وعليه بلا حدود، أتمنى أن أرى عينيه مرة أخيرة، أريد أن أرى فيهما ما لم أفطن له، لا أتذكرهما إلا وهما مسبلتان ذائبتان يوم كانت تلك القبلة الأولى فنقلتا إلي كل وجده وكل حبه. أريد الآن أن أطل من خلالهما على قلب له قدرات سحرة فرعون، بمثل سحرهم ضللتني، فبدل أحوالي، جعلني مخلوقة تعسة لا تحمل اسماً، ولا لقباً، ولا عنواناً، وتنتظر طفلاً لا تريده. أحلم بالمنام واليقظة بأن يكون كل ما مر بي كابوساً. لكن الحقيقة ترتعش فوق عيني، تأكد وجودها مع كل لحظة صدق أعيشها.

بعد خروج صالح في تلك الليلة مكسوراً كما رأيته، متحدياً كرامة أبي كما رآها أبي نفسه، التفت أبي نحوي صائحاً:
- لن تخرجي من البيت إلا على قبرك. الموت أفضل من أن يأخذك هذا الإنسان الوضيع.

ترد أُمي بحزن:

- خذ الأمور ببساطة يا أبا حسان، رجل خطب ابنتك ورفضته. هذا كل ما في الأمر.

- لا.. الأمر أخطر من ذلك بكثير، لقد رأيت له وجهاً جديداً لم أعرفه منذ ثلاثين عاماً. هل من الممكن أن يكون حقيراً إلى هذا الحد دون أن نعرف.

- لماذا غيرت رأيك فيه بمثل هذه السرعة يا رجل. إنه صديق
عمرك وأعتقد أن نادر..

لم يدعها تكمل بل صرخ بأسى:

- اسكتي إنك لا تعرفين شيئاً.. أنا أيضاً قبل تلك النظرة التي
صنع بها وجهي كنت لا أعرفه حق المعرفة.
- رغم كل تلك السنين..

تركتهما يتحاوران وكأن الأمر لا يعنيني، كنت أسمع همس صالح
يناديني وينتحب، فتحت باب البيت بتؤدة ونزلت إلى الشارع، تلفت يمينه
ويسرة فلم أجد أحداً. عدت متسللة إلى البيت، قبل أن أندس بين ضلفتي
الباب الموارب رأيت صالح واقفاً على درجات الطابق الأعلى من بيتنا.
عدت للتسلل خارجه إليه، فجأة قبضت يد أبي بقوة على ذراعي وجذبني
للدخل وصفق الباب بمنتهى العنف.

ما أن تلاققت عينانا حتى شعرت كأن كلاً منا قد فقد صلته
الحقيقية والطبيعية بالآخر. كأننا غريبان، كأننا غريمان. تجلدت أمامه
رغم الهلع الذي أصابني من نظرتة الخالية من كل عاطفة، صوت
صالح ما زال يئن، وعقلي يزحف نحوه، كأنه طفلي الصغير يطالبني
بحمايته. قلت لأبي بصوت متقطع:

- أبي أرجوك.. صالح سيموت إذا لم توافق.

- عمك صالح يا غبية. على كل حال سأعرف كيف أخرج هذا
الإدمان من دمك.

ساقني إلى المطبخ وربطني إلى درابزين الدرجات القليلة المؤدية إلى سقيفة المؤونة، شد الوثاق مرات عديدة ليتأكد من قوته ثم تركني وذهب لينام، قبل دخوله الغرفة قال بصوت سمعه الجميع:

- كل من يخطر على باله مساعدتها سيكون خارجاً على طاعتي وإرادتي، أما ماذا يعني ذلك، اذهبوا إلى المطبخ وسترون بأعينكم نتيجة العصيان.

مر يومان وأنا على هذه الحال بلا طعام بلا نوم، لم تجف دموعي أبداً، لم يتحرك قلبه بالشفقة، لأول مرة أواجه هذا الأب الآخر الذي كان حبه لنا يفوق كل وصف.

زارنا عمو نادر مرات عديدة في هذين اليومين محاولاً التوصل إلى حل يرضي الطرفين دون جدوى. حين رأى أن الحال على ما هو عليه قال لأبي بغضب من له دلالة عليه:

- يبدو أنني من سيخرج عن طاعتك ويفك قيودها. ماذا بوسعك أن تفعل؟

- هذا شأنك، لكنك ستكون مسئولاً أمامي عما يصيبها مستقبلاً.

- لن يصيبها أسوأ مما هي فيه.

تقدم مني وفك وثاقي ودفعت بي لأمي النازفة ثوان عمرها منذ أن استشاط غضب أبي إلى هذه النهاية المروعة.

فشلت كل وساطة لتقريب وجهات النظر أو لبحث الموضوع من جديد. مر الأسبوع الأول على انهزام صالح وانكساري، هدأت سورة

غضب أبي، فقد رأيته يجالس صديقه ويتسامران كالسابق، سمعت عمو نادر يقول لأبي هامساً:

- لقد خرج صالح من المستشفى اليوم بعد محاولة الانتحار التي أقدم عليها حين علم بما حصل مع أمل. أرجوك اسمح لها أن تراه لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً.

رفض أبي بشكل صارم، لكن نادر لم ييأس، ظل على محاولاته المتكررة. كان يزورنا كل يوم بعد زيارته لصالح الذي كان يلح عليه بإيجاد طريقة له ليراني. استجاب أبي أخيراً وسمح بذهابي مع نادر لزيارة صالح.

كان صالح يقيم في بيت آخر قريب من الشركة التي نعمل بها سويماً. تفاجأ بدخولي عليه، انفرجت أساريره رغم حالة الاكتئاب التي كان يعانيتها. ما أن مددت يدي للسلام عليه حتى تمسك بها قائلاً:

- هذا كل ما كنت أرجوه، شكراً جزيلاً يا نادر. أقسم ألا يفرقني عنها بعد اليوم إلا الموت.

كان موقف نادر محزناً فقد احتار بين وعده لأبي بأن الأمر مجرد رؤية كل منا للآخر وبين صالح الذي ينزف حياته لحظة بلحظة. تركنا صالح وغاب دقائق ثم عاد وهو يقول:

- لقد قررت وضع حد لهذا العذاب.

وقف نادر قائلاً بحدة وانفعال:

- نصيحتي لك أن تصرف النظر عن أي سلوك فيه أي معنى من معاني التحدي، صدقني لن يجدي، خاصة في هذه الفترة العصبية. أبدى صالح الكثير من المهادنة واللين فصدق نادر ودار الحديث حول أمور كثيرة بعيدة جداً عما يشغل بالنا جميعاً. في تلك الأثناء دخل علينا رجل ملتج حاملاً دفترًا كبيراً جلس بقربي قائلاً:

- هل أنت العروس؟

رد صالح وقد بدأت الحياة تدب في أوصاله:

- نعم يا سيدنا، وأنا العريس.

بسط دفتره، احتج نادر وغضب، تقدم مني يشدني من يدي ويقول

لصالح:

- أرجوك لا تضعني في مثل هذا الموقف المحرج، أصبر لعلنا نجد مخرجاً أفضل.

استمر الرجل في إتمام إجراءات الزواج، أصبح أمل نادر متوقفاً عليّ، أن أرفض ما يرفض، أن أحافظ على سلامة موقفه أمام أبي، كنت فعلاً في صفه ولكن ما أن التقت عيناى بعيني صالح حتى همدت. وما أن أمرني:

- وقعي هنا قبل أن تعودني إلى سجنك الكريه.

وقعت وأصبحت زوجة صالح، وقع الشاهد الأول لم يجد نادر مفراً من تقبل تحمل مسئوليتي كما سلمها له أبي كاملة فأراد أن يكون الشاهد

الثاني على هذا الزواج، قال وهو يرفع ظهره المنحني فوق الأوراق التي سيوقعها:

- لن أوقع، ما أعرفه أنها لم تتجاوز الثامنة عشرة من عمرها، هناك تزوير من قبل أحد ما، أم أنا المخطئ؟
لم يرد أحد. أعاد السؤال لي بشكل خاص قبل أن أرد كان صالح قد بث في سحره فقلت:

- ليس هناك تزوير ولا أي خطأ، إنني في الثانية والعشرين.
انحنى مرة أخرى ووقع ثم اقترب مني قائلاً:
- أتمنى لك السعادة ولكن تذكرني بأنني غير موافق على ما حصل الآن. الطريقة لا تليق بأبيك ولا بك، وزواج بهذا الشكل دون عائلتك لن يكون موفقاً.

التفت نحو صالح قائلاً:

- مبروك يا صالح أتمنى أن تصونها وتثبت للجميع مع الأيام أنك تستحق تضحية الجميع في سبيل إسعادك.
الغريب أن صالح الذي أقسم قبل قليل ألا يفرقني عنه إلا الموت لم يبد اعتراضاً ونادر يقترح عليه أن يتركني أعود معه ريثما تهدأ النفوس.
في طريق العودة سألني نادر:

- ماذا ستفعلين؟ هل ستخبرين أباك الآن أم تفضلين الانتظار؟
على كل حال أفضل أن تخبري أمك وهي تخبر أباك على مهل، اتصلي بي وأخبريني ماذا تم معك حتى أتحرك ضمن ذلك المجال.

كان لذهابي في تلك الليلة وعودتي، وقد خيم الهدوء على نفسي
أثر السحر على أبي. أفرج عني بعد تلك الليلة، سمح لي بالخروج كما
السابق، بل وأكثر من ذلك سمح لي بالعودة للعمل في الشركة بعد إلاح
الأستاذ نبيل على ضرورة الالتزام بالعمل ريثما يتدبر أمره، وافق حتى لا
يضطر لشرح الأسباب وتوسيع دائرة الخبر.

كنت النقي بصالح كل يوم، نذهب إلى البيت الذي عقد قراننا فيه
كزوجين. كان الوضع يؤلمني، كأنني أخون أبي أو نفسي، كأنني أسرق
شيئاً ليس من حقي، لم يكن أي شيء يثنيني عن رفض ذلك الوضع إلا
الفرحة الكبيرة التي يعيشها صالح معي في تلك الأوقات المحدودة.
انتهزت فرصة ذاك الحبور فقلت لصالح وأنا أردي ملابسني بسرعة فقد
تأخرت عن موعد عودتي إلى البيت:

- صالح سأخبر أبي بالأمر، لا أستطيع أن أعيش هكذا كأنني
أقوم بعمل شائن.

رد بسرعة:

- أعرف أن هذا صعب عليك، لكن تذكرني ما فعله بك حين
طلبتك للزواج. قد يقتلك إذا أخبرته، لن أستطيع حمايتك قبل أن ينتهي
إعداد بيتنا، على كل حال أسبوع واحد ويتم كل شيء كما تريدين.

قبل نهاية الشهر الأول لزوجنا كان البيت جاهزاً لاستقبالنا، اتفقنا
أنا وصالح على اللقاء بعد انتهائه من عمله في الشركة في حوالي
الساعة العاشرة مساءً.

وصلت قبل الموعد بقليل، دخلت إلى الشركة كانت المكاتب
مضاءة ناديته فلم يجب، أطل عليّ وجه الأستاذ نبيل، سمعته يقول:
- هذه أمل سكرتيرتي لا أعرف سبب مجيئها في مثل هذا الوقت،
إنها على صلة وثيقة بصالح لعلها تعرف مكانه أو تعرف أي شيء حول
موضوعنا، أو لعلها شريكته.

كان هناك رجال أمن كثيرون بملابسهم الرسمية، طلب مني أحدهم
الدخول إلى مكتبه ففعلت. جلست وإذ بي محل استجواب طويل، عرفت
بأنني مدانة وأن صالحاً متهم، ولم أعرف تهمته ولا سبب إدانتي.
فجأة رأيت أبي واقفاً أمامي مرتجفاً شاحباً. يبدو بأنه استدعي على
عجل فلم يفهم أكثر من أن الأمر متعلق بي، فهرع إليّ خائفاً مضطرباً.
لا أستطيع وصف منظره المتلهف على معرفة سبب الاستدعاء، مما زاد
الرعب في نفسي، ثم تحول إلى خجل مزر.

بعد أن يؤس المحقق من أن يعرف مني شيئاً جديداً بدأ يلاطفني
ويهدئ من روعي، حتى سألني فجأة:

- هل من عادتك الحضور إلى مقر الشركة في مثل هذا الوقت
أثناء قيام صالح بالأعمال المنوطة به بالشركة؟
- لا.. هذه المرة الأولى.
- ولماذا أتيت الليلة؟

أسقط في يدي، تلفت حولي كأنني أبحث عن هوة أسقط بها أو كوة
أطير من خلالها وأخرج إلى الفضاء، فلا تقع عيناى إلا على وجه أبي
حاملاً فجيعة التي كانت تكبر وتكبر. بكيت كثيراً ونشجت بحرقة أشد.
يبدو أن المحقق فهم بأنني أخفي شيئاً عن أبي، فطلب من الجميع
إخلاء الغرفة. وحين بقينا وحدنا أعاد عليّ السؤال، أحبته بصدق:
- لقد تزوجنا سرّاً منذ شهر تقريباً بعد أن رفض أبي الموافقة على
زواجنا، واتفقنا اليوم على أن نتلقى هنا ليصبحني إلى بيتنا.
- هل كنت على علم بحضوره إلى الشركة كل ليلة لإنجاز أعماله؟
- طبعاً كنت أعرف مثل جميع موظفي الشركة، كنت أعيد ترتيب
الأوراق التي كان يعمل بها وإعادتها إلى الملفات في اليوم التالي.
حين عاد الجميع إلى الغرفة، أخبر المحقق أبي كل ما عرفه مني.
صمت أبي صمتاً مؤلماً، نكس رأسه وأغمض عينيه فترة طويلة ثم تمالك
نفسه ووقف وهو يقول للمحقق:
- اعذرنى يا سيدي لم أعد أحتمل هل تسمح لي بالذهاب؟
- وابنتك؟ بإمكانك الطعن في هذا الزواج و..
لم ينتظر بقية الكلام، مشى بضع خطوات مترنحاً وهامساً من
حشاشة قلبه دون أن يلتفت:
- ليس لي ابنة هنا.
خرج أبي قبل أن يؤذن له. لحقت به أرجوه وأتوسل إليه أن
يسامحني ويبقى معي. لم يستجب بقي سائراً للأمام لا يريم.

وقفت على باب الشركة أتابع أبي وهو يختفي في الليل. حاولت اللحاق به، لكن جاءني صوت يأمرني بالعودة فوراً. قبل أن استجيب وأعود رأيت صالح ينزل من سيارته، كدت أصرخ من الفرح، رأيته يقف عن بعد، واضعاً سبابته على شفثيه يأمرني بالتزام الصمت، وعاد أدراجه من حيث أتى بسيارته وكأن الأمر لا يعنيه.

عدت إلى المكتب من جديد سألني المحقق بغتة:

- ماذا كان يعني بكلمة صندوق البريد اليومية.

لم أرد، تقدم مني الأستاذ نبيل وهو يقول باستهزاء:

- "راجعني صندوق البريد" ألم يترك هذه الكلمات كل صباح على

مكتبك.

قال أحد المحققين:

- يجب ان تجيبي على هذا السؤال وبصدق، لماذا كان يترك لك

ورقة كل يوم يقول لك فيها "صندوق البريد" لعلها كلمة السر بينكما.

صاح الأستاذ نبيل قائلاً:

- إنني أوجه الاتهام لهذه الفتاة بالتواطؤ مع المتهم صالح.

قال نادر الذي كان يقف بعيداً موجهاً كلامه لصديقه وصاحب

الشركة التي يعمل محامياً لها:

- أليس غريباً أن تكتشفوا في هذه الليلة بالذات أمر التزوير

والاختلاس، وكل التهم التي وجهت إلى صالح؟

رد نبيل والحيرة تعصف به أكثر من صديقه:

- لا أعرف.. لكنني تسلمت رسالة أعطتها امرأة إلى أحد الساعة الساعة الثامنة مساءً، كان بها أدلة دامغة وأوراق تثبت التزوير وأنه يستعمل جزءاً من المخزن الأرضي في شركتي كمقر لتلك الأعمال المشينة. أخطرتنا على عزمه عن الهرب الليلة إلى بلد بعيد.

قال نادر:

- لماذا لا يكون في الأمر دسيسة؟ لقد نزلنا إلى المخزن ولم نجد شيئاً مريباً.

لم يجب الأستاذ نبيل بل وجه سؤاله إليّ بكل عطف كما اعتاد أن يكلمني:

- ما حكاية صندوق البريد يا أمل.

قلت ببساطة:

- أنها رسائل حب كان يتركها لي هناك.

أشرت إلى مسند المقعد حين كان يجلس المحقق، استدار وفتح الجهة اليمنى لم يجد شيئاً، فتح الجهة اليسرى فوجد مجموعة من الأوراق مخفية بالطريقة ذاتها، مبرومة ومخبأة بعناية على طول الأسطوانة الحديدية.

بدأ بفتح الأوراق بعناية شديدة، ظهرت حقائق فهمها الجميع إلا أنا. كانت تحمل أرقاماً ورموزاً غريبة وأسماء وعناوين، بل إن بعضها كان يحمل خطي شخصياً، لم أتذكر متى استكتبني إياها. نشط الجميع بعد ذلك، وبحماسة غريبة، أمرني صاحب الشركة بأن أفتح الأدراج

والملفات، ففعلت. ففتشوا كل الأوراق في الملفات وخارجها. نزلوا إلى الطابق الأرضي واكتشفوا مخبأً سرياً فتح باستعمال الأرقام الموجودة في تلك الأوراق، ومن خلال باب مخفي داخل خزانة حديدية عتيقة عبروا إلى مقر سري تماماً كما جاء في الرسالة التي وصلت الشركة كما قال الأستاذ نبيل. ومع ذلك فقد سأل نادر:

- نبيل..كيف تصدق شيئاً مثل هذا على صالح؟ صالح الرجل المخلص الأمين لنا منذ أكثر من ثلاثين سنة. لعلها ملك صاحب تلك الرسالة. يجب أن نتحقق من الأمر.
سألت بهلع:

- هل سيفرج عني؟ لا بد من اللحاق بأبي أرجوكم..
لا أدري كيف تمت المعجزة وأطلقوا سراحي قبل الانتهاء من التحقيق.. ربما بكفالة صاحب الشركة، لكنهم قالوا بأنهم سيحتاجونني عند التحقيق، بعد إلقاء القبض عليه.

عدت إلى البيت بلهفة وخوف، استقبلتني وجوه محزونة كأنها في مآتم. كان أبي مسجى على فراشه يعاني ذبحة صدرية غائبة عن الوعي تقريباً، جهاز الضغط مربوطاً فوق ذراعه والطبيب جالس أمامه يترقب. وقعت مسمرة على باب غرفته أنوح نادبة نفسي، قال الطبيب:

- إن الساعات القادمة حاسمة إما أن تكون حالة الشلل طارئة وستزول وإما أن يموت أو يعيش عاجزاً مدى الحياة.
انهرت باكية أصيح بصوت مكتوم وأنا احتضن أُمي:

- أنا قتلتها، لن أسامح نفسي، لن أسامح نفسي.

رأيت أُمِّي تتسحب من بين ذراعي وتزجرني على هياجي وصياحي الأليم وتدخل إلى غرفة أبي، لحقت بها، جلست على المقعد بجانب سريره دون أن تعيرني أي التفات، وقضت ليلتها واضعة يدها على خدها كمن فقد الحيلة أمام مجهول قادم فاغراً فاه ليبتلع كل شيء ولا تملك إلا انتظاره. تسللت إلى الغرفة وجثوت أمام سريره أصلي وأطلب له من الله الشفاء.

فتح عينيه مع قدوم الفجر، وقع نظره علي جانب سريره منكمشة على نفسي يكاد الخوف والحزن يفتكان بي، حاول أن يتكلم فعجز، جاء صوته مرعباً كأنه يخرج من لسان أعجم.. بكى من العجز. أول مرة في حياتي أرى دموع أبي. اقتربت منه أمسكت بيده أقبليها، سحبها من يدي، وأدار وجهه ناحية أُمِّي وأشار بإخراجه من البيت فوراً، حين حاولت أُمِّي استدرار عطفه، كتب بيده اليسرى تلك الكلمة التي لن أنساها أبداً. "لست زوجة لي بعد اليوم إذا سمحت لها بالبقاء هنا لحظة واحدة"

عجز لسانه المشلول عن القول، لكن عيناه قالتا الكثير، لم أتحرك من أمامه لم أجد في نفسي الجرأة على مغادرة غرفته لئلا يموت ويتركني تائهة في هذا الإعصار الذي دهمنا. تناول القلم مرة أخرى، هرعت إليه أناوله الورقة، لم أكن أتوقع أن يكتب صك إعدامي من حياة أسرتي وأنا حية أرزق. " لم يعد لي بنت اسمها أمل، اخرجي حالاً من بيتي، لن يهمني بعد اليوم لو قطعتك الكلاب الضالة إرباً". ناول الورقة لأُمِّي، لم

تستطع أن تقرأها لوجود طبقة كثيفة من الدموع في مآقيها، أخذتها من يدها، لم يتمهل لأقرأها، سحب نفسه عنوة داخل الفراش وأخفى وجهه بأغطية السرير.

خرجت من غرفة أبي إلى الصالة حاملة ذلي وانكساري، وجدت نادر جالساً في البهو ملقياً رأسه بين كفيه وهموم الدنيا فوق كتفيه. يبدو أنه قد قضى بقية الليل على هذه الحالة، ما أن أحس بي حتى رفع وجهه ونظر نحوي نظرة ملؤها الحزن واللوم. ربت على رأسي وحاول أن يبتسم لكنه فشل.

وقف متردداً ثم تجرأ ودخل إلى غرفة أبي، لم يلبث هناك سوى دقائق قليلة خرج بعدها ممسكاً بين يديه ورقة كالتي كانت في يدي، أدناها مني، قرأت خط أبي " اخرج من بيتي حالاً وخذها معك فأنت من ورطها. اعتبرتك أخاً وصديقاً فإذا بك ألد أعدائي " طوى الورقة ووضعها في جيب سترته ثم أمسك بيدي وخرجنا معاً من البيت إلى المجهول.

بقي على صمته ووجومه طوال الطريق، يدي في يده يسوقني كأنه يسوق أعمى. حاولت مراراً أن أخلص يدي لكنني فشلت كان يضغط بكل قواه إلى درجة مؤلمة. تذكرني فجأة، فقد رأيتَه يلتفت نحوي، وجدني مبتئسة كان حالي يثير الشفقة أكثر مما يثير الغضب، فابتسم مشجعاً.

- إلى أين؟

رد بصوت هادئ:

- إلى بيتك، ستنتظرين براءة صالح الوشيكة والأكيذة. بعدها لكل
حادث حديث. من سوء حظك وحظي أن يعرف أبوك قضية زواجك
وصالح في هذا المأزق.

لم أرد بقيت ساهمة أفكر في كيفية دخولي هذا البيت الجديد الكبير
وحدي دون صالح، كيف سأعيش منبوذة وحيدة، أبي يعاني بين الحياة
والموت، وصالح لا أعرف له مصير.

قرأ أفكاري فراح يكلمني بإسهاب وبتقنة عن المستقبل فأراحي.
يومها حاولت تصديق ما يقول، وطرد الوسواس من صدري، وقد فعلت،
وما كان ذلك عن اقتناع بقدر ما كان هروباً من حالة شلل صامتة
ألهمت وجداني.

منذ ذلك اليوم والمصائب تنهال فوق رأسي من كل حذب وصوب،
تمر الأسابيع مرة كالعقمة، قلقي يزداد كل دقيقة، أصبح مرضاً. نادر
وحده من يفهمني ويخفف لوعتي، يعطيني القدرة على الصبر والاحتمال.
لكن أين هو؟.

بعد أسبوعين من تلك الليلة الحزينة زارني أول مرة في بيتي، حين
رأيته من خلال العين السحرية واقفاً أمام الباب البيت نسيت أحزاني،
كدت أطيّر فرحاً، أحسست كأنني أرى أبي، وأيامنا الحلوة مع بعضنا
بعضاً، حين تلمنا جلسة غداء أو عشاء ونحن أطفال نلهو ونكبر حول
مرح الكبار وهدوء بالهم.

في زيارته الثانية، لم أتمالك، ألقيت بنفسي فوق صدره وأجهشت في البكاء، كأنني عدت تلك البنت الصغيرة التي تتدل على أبيها وأصحابه بكل حرية. الحقيقة أنني كنت أعيش أحلك لحظة في حياتي فقد تأكدت بأنني حامل وسأصبح أماً. حين رفع رأسي من فوق كتفه ونظر في وجهي قلت وسط نشيجي:

- لم أعد أستطيع البقاء منفية في بيت غريب عني في وحدة قاسية. أنتظر عودة الرجل الذي لا أعرف متى يرجع، أو بانتظارك لتأتيني حاملاً نبأ الإفراج عني من هذا الحبس الانفرادي والإجباري. أرجوك أعطني لأبي.

جلس على الأريكة أمامي واجماً وبقيت واقفة كأنني على وشك الرحيل. دافع عن صالح وأسهب، قلبي الصغير الذي طالما ضللتني، كان في تلك المرة مرتاباً كافرأ بكل كلمة تقال عنه، حتى اسمه كان يصل إلى مسامع قلبي غريباً مريباً فأتساءل بيني وبين نفسي: كيف فقدت إيماني بإنسان وهبته حياتي عن طيب خاطر لأمنحه سعادة ألح عليّ كثيراً أن أمنحها له بعد شقاء عمره كله، أنا دون نساء الأرض.

ابتلعت الحبة الأخيرة وانتظرت. مع بزوغ الفجر أحسست بخدر يسري في جسدي، جيش من النمل يزحف فوق جلدي، تحت شعري، فزعت. هل حقت الحقيقة؟ هل سأموت فعلاً؟ من سيموت أولاً أنا أم الجنين؟ الموت، يا لها من كلمة بسيطة ونحن نتشوق بها، وما أصعبها حين تحق كحقيقة.

حلاوة الحياة دبت في اوصالي فتحركت في محاولة مني لتخليص نفسي من حالتي الترابية التي أصبحت عليها. تفاعلات جسدي لا تستقر، أحس بسخونة شديدة ثم برد، تتسارع نبضات قلبي ثم تبطئ. يا إلهي لا أريد أن أموت ولا أريد الموت لجنيني. أي خيار جبان هذا؟ صرت أركض في أرجاء الغرفة كمن أصيبت بمس، بين النافذة والباب وبالعكس، لا مغيث. أعود للنافذة أفتحها أتدلى منها لا أحد يمر في هذا الصباح الباكر ليسعفني. دوار خفيف يلف رأسي ثم يشتد، شعرت بالغثيان، تمسكت بالستائر لأثبت نفسي على الأرض التي أخذت تميد بي.

احتضنت بطني بكلتي يدي وبكيت، لقد ساعدني المسكين على سرعة التخلص منه. همدت في مكاني حزينة ونادمة، لا أعرف كم من الوقت مضى وأنا غارقة في ملوحة الدموع والألم والأمل الخائب. صحوت من غفوتي أو غيبوتي على صوت جرس الباب يندد بتلك النعمة السعيدة التي اختارها صالح لتبشرني بعودته من عمله مرتين في اليوم. وليست رويماً فوق ثيابي وهرعت نحو الباب لأفتحه لنادر. ليس هو!! اصطدمت عيناى المتلهفتان بوجه امرأة تقف أمامي مرتدية زياً طويلاً داكناً، تغطي رأسها بمنديل أسود يحيط بوجهها المستدير المضيء فيزيد من وقارها. لأول مرة في حياتي أرى وجهاً له كل هذه المعالم المستديرة. عيناها مستديرتان تتحركان بسرعة في كل اتجاه، حاجباها مرفوعان بدهشة تزيد من حدة تقوسهما الدائري، فمها

مستدير مطبق على قسوة باردة، وجنتاها مستديرتان ممثلتان تطفحان بلون الدم.

طال انتظار الضيفة، وما زلت على وقفتي مسمرة مكاني، بانتظار أن يحم القضاء وتنتهي مأساتي، ركبتي تصطكان، أهدق بالمرأة الواقعة أمامي وكأنها هبطت من كوكب آخر.

لم تنتظر الضيفة الإذن بالدخول، بل عبرت أمامي دون تحفظ وقد لحظت شحوبي ووهني منذ الوهلة الأولى، تسانددت حتى لحقت بها. أجالت نظراتها فيما حولها واختارت لجلوسها الأريكة ذاتها التي كنت انتحب فوقها وانزف دموعي فوق مسندها طوال يوم أمس. قالت:

- آسفة للإزعاج، آسفة لمجيئي دون سابق معرفة، وآسفة أيضاً لدخولي دون انتظار الإذن. بيت زوجي يعني بيتي.

آسفة مرة أخرى كان يجب أن أبدأ بأن أعرفك على نفسي، أنا ناهي.. زوجة صالح وابنة عمته. تعرفين طبعاً بأننا زوجان منذ سنوات طويلة. لقد زرنا أهلك مرات في بداية زواجنا، كنت طفلة آنذاك. نعم كان ذلك قبل أن تصبحي عروساً جميلة كما أراك الآن. لم ننجب وإلا كان لنا ابنة في مثل سنك أو أكبر قليلاً منك. على كل حال لم أحرم تماماً من الأمومة فقد كان صالح وأبوه طفلي المدللين.

بقيت صامتة كأنني اسمع لغة لا أفهمها. قالت من جديد:

- علمت أنكما كنتما على وشك الزواج لولا تلك الحادثة التي تعرفينها جيداً. بالمناسبة لقد اتصل بي بعد فراره وأخبرني بأنك من وشى به، سلمتهم أوراقاً كانت في حوزتك.

لم أرد، ألم شديد اعتصر بطني، تناسيت وجودها مددت جسدي فوق الأريكة المقابلة لها. تابعت تقريرها:

- والد صالح، أعني خالي على فراش الموت وأريد منك أن تدليني على طريقة للاتصال به ليراه قبل أن يفارق الحياة، هذه مشيئة العجوز. رددت بصوت غائر في صدري:

- لم أكن أعرف أنكما مازلتما زوجين، أخبرني أنك منذ توفي والده خرجت من حياته لأنك لا تريدين حرمانه من الأبوة. أحسست به، كان وحيداً وشقيماً، تمنى كثيراً أن يرزق بطفل انتظره طويلاً. تبسمت المرأة بأسى وقالت:

- لست أنا من حرمة نعمة الأبوة إنها إرادة الله، هو الذي لا ينجب ولست أنا. تحملت الكثير من مثل هذه النوبات التي تصيبه فيغرق فيها ثم يعود نادماً مستغفراً. في هذه المرة أساء لنفسه ووقع في شر أعماله سلمتهم أوراق إدانته بيدك.

- لم أش به ولم أسلم أوراقاً ما، كنت في ذلك الوقت لا أعرف تهمته، وحين عرفتها لم أصدقها، بقيت على يقين من براءته.

- براءته.. هل تستغليني أم تضللين نفسك، صالح ليس بريئاً بل مداناً بأدلة دامغة.

جرس الباب الخارجي يرن مرة أخرى، بلا تريث فتحتة، دخل نادر متمهلاً مستغرباً من وجود ضيوف في هذا البيت الساكن كالقبر. نظر نحوي مستوضحاً قلت هامسة:

- تقول إنها ناهي زوجة صالح، ألا تعرفها؟

- أعرفها منذ زمن طويل، لكن استغربت شكلها ووجودها هنا.

وقفت الضيفة وحيته بأدب وبابتسامة خجولة وحزينة، قالت:

- أهلاً أستاذ نادر، لقد تقابلنا عدة مرات في بداية زواجي بصالح

لا شك بأنك تتذكرني. على كل حال الحمد لله أنك جئت الآن في

وجودي، تقول السيدة إنك من ينقل لها أخباره.

صمتت دقائق وهي تفرك كفيها بتوتر واضح ثم استأنفت الحديث

وكأنها تخاطب نفسها:

- أتيت لأطلب منها أن تخبره بأن أباه يريد رؤيته ولا شيء آخر،

فأنا أفضل ألا أعرف عنه شيئاً لأنهم كثيراً ما يعودون لاستجوابي.

- لكن كيف عرفت هذا العنوان؟

- من يسأل يعرف. على كل حال عرفتها من أوراق صالح

الموجودة عندي في البيت. ألا يزال ذلك البيت بيته أم وجدت له صرفه

قانونية ليخلص منه؟

- غداً سيخرج من مكنه إلى بيتي في الساعة الثامنة، ثم ينطلق

للبحث عن براءته.

- لكنه ليس بريئاً.

- بصفتي صديق ومحام سيبقى في نظري بريئاً حتى يثبت العكس. إذا أردت يمكنك رؤيته في ذلك الوقت.

أبدت موافقة مترددة ثم لانت قسمات وجهها وهي تقول:

- لا بأس..خالي يستحق أن أضحى من أجله بأكثر من ذلك، فلم يعد له غيري. اكتب لي العنوان من فضلك.

تناولت العنوان وأخفته في حقيبة يدها باهتمام واضح، ألقت تحية آلية ومشت في طريقها إلى الباب. ثمة شيء في حديثها أو حركاتها أثار حاسة المحامي فسأل نادر:

- هل لك يد فيما حصل له؟

- لماذا تسأل؟

- لقد كان التوقيت محكماً، لا بد وأن يكون بفعل فاعل حذق. ليس لأحد من منفعة من إبعاده عن أمل في تلك الليلة غيرك.

- هل تنتظر مني إجابة صريحة؟ يقولون إنك محام بارع. أم تريدني ألا أصدق ما يقولون؟

- هذا شأنك. لكن عندي يقين الآن بأنك صاحبة تلك الرسالة.

- دعك من هذا، سأروي ما حدث في ذلك اليوم. استيقظ من القيلولة غاضباً بشكل لم أره في حياتي كلها. لف أرجاء البيت مثل أسد جريح، ينتظر فرصة سانحة للتنفيس عما يكرهه، ابتعدت عن مكان وجوده، فقد اصبح لا يتوانى عن جرحي وإيلامي بل وإهانتني بكل بساطة. نادى عليّ أمراً بإحضار القهوة، حين أتيت بها كان واقفاً في

زاوية الغرفة معطياً ظهره للباب الذي سادخل منه، كان متأبطاً سماعاً الهاتف بكليتي يديه، حانياً عليها كأنه يحتضن من يرد عليه على الخط الآخر. نشط فضولي وغيرتي وخوفي، لأول مرة أعترف، على الأقل بيني وبين نفسي، بمثل هذه المشاعر. أنصت لهمسه، عرفت أنهما سيلتقيان الليلة ويذهبان معاً إلى مكان ما لبدء حياتهما الجديدة.

حين كنت اتهمه بأن مشاعره تجاه ابنة صديقه قد تغيرت ولم تعد مجرد مشاعر رجل محروم من الأبوة تجاه ابنة صديقه الأقرب إليه من نفسه كان ينكر بشدة وكنت بدوري أصدق. في تلك الليلة بعد أن سمعت ما سمعت أيقنت بأنه استولى على قلبها وعقلها، أثار اهتمامها. لعله اخترع لها روايات عن عذابه وحرمانه كما يفعل كل زوج يريد التقرب من المرأة الأخرى، على الرغم من أنها صنع خياله فقد أتقنها إلى درجة أن صدقته، ثم صدقها هو نفسه. قدرت ذلك لأنه صار يهذي بشكوى تقطع القلب يعذبنا بها أنا والشيخ، أنا وأبوه كنا نعرف بأنها مجرد أوهام، لعله من تكراره لها أمام الصغيرة أصبحت حقائق في أحاسيسه.

صمتت قليلاً ثم ضحكت ساخرة وقالت:

- ليس ما أقوله مجرد تخيل وتخمين، إنه كلام امرأة مجرّبة، تعلمت الحياة على يد حاو بارع. في ذلك اليوم سمعته يهمس لها بصوت بائس ضعيف غير الآخر الذي أمرني به إحضار القهوة:

- لقد أرسلتك السماء لي وظروفي تزداد تعاسة، لا أعرف ماذا كنت سأفعل بنفسني لولا وجودك، كم أخشى أن أثقل عليك، أرجوك

سامحيني، الوحدة التي أعيشها تكاد تقتلني. على كل حال اليوم هو آخر أيام عذابي ووحديتي، سنكون معاً وإلى الأبد.

التقت خلفه فجأة، تراجعت للخلف خطوة خفيفة، فلم يرني لكنه رأى نظرة تساؤل في عيني الشيخ الجالس على كرسيه المتحرك قريباً منه فقال بعد دقائق صمت:

- أول مرة في حياتي أحس بسعادة حقيقية، لا تقل شيئاً ينغص عليّ. أعرف فارق العمر بيننا، وأعرف بأن والدها صديقي الحميم يثق بي ثقة عمياء. أعرف كل شيء ولكنني أتناسى. ماذا بوسعي أن أفعل غير هذا؟

بكى الشيخ دون صوت دون دموع فتقدم منه وهزه بلا رحمة:
- عشرون عاما من الزواج غير المثمر، هل لك أن تقول لي ما معناه؟

صار الحديث في هذا موضوع القديم المحسوم أعني عدم الإنجاب الباب الذي يدخل ويخرج منه كلما أراد أن يثير مشكلة في البيت. ارتسم الألم على وجه خالي. كان لا يترك فرصة للدفاع عني دون ان ينتهزها. رفع رأسه على قدر استطاعته وهمس بشفتيه الضعيفتين:

- زوجتك طيبة، ثم لا تنسى بأنها ابنة أختي، تخدم عجزتي، يا ولدي هي التي يجب أن تصرخ من جحيم زواج بلا حب بلا ذرية بلا راحة

- لكن الطبيب أكد لي بأن العلاج الذي سرت عليه لا بد وأن يأتي
بنتيجة، لماذا لا تكون هي المسئولة؟

في تلك اللحظة دخلت بحجة إعطاء الدواء للعجوز، قلت أرد عليه:
- وأنا أيضاً أكد الطب قدرتي على الإنجاب.

لم يكلف نفسه عناء الرد أو تطيبب نفسي الجريحة، أعتقد بأنه لم
يحس بي كامرأة منذ سنوات طويلة، لم يرني بأكثر من قدمين ويدين
تقومان بحركات دؤوب في تمريض أبيه. الحكم لك الآن أيها المحامي
الهامام.

اشتعلت نفسي بالغضب لا أعرف على من وممن. وقفت بسرعة،
شعرت بدوار خفيف ووقعت على الأرض أمامها. تمددت في المكان
الذي سقطت فيه ركبتي. ألم شديد يقطع أحشائي، جسدي ينقبض
وينبسط، أحسست بشيء يتفتت في أحشائي، ثم بسائل ساخن يتدفق
على طول ساقي، رفعت رأسي ونظرت بخوف، رأيت بقعاً من الدماء
تلطخ ثوبي الأبيض.

صاحت بلا وعي:

- ما هذا؟ دماء؟

ركض نادر صائحاً بي:

- هل فعلتها؟ لقد طلبت منك ألا تقومي بأي محاولة لقتل الجنين..
جأرت المرأة المتأهبة للخروج بصوت مستنكر:

- ماذا تقول؟ جنين؟ جنين من؟ قد يكون من أي أحد إلا صالح.
لا تفترين على صالح، فهو هرب قبل أن يتزوج منك، وهو أصلاً لا
ينجب، إنني متأكدة من ذلك.

صحت بوهن:

- هذا حرام وكثير، والله كثير، لم أعد أحتمل.

قال نادر بهدوء:

- ما تقولينه يعتبر قذفاً علنياً، إنها زوجة صالح وتحمل بابنه
وستنتظر عودته، ثم تصفي أمورها معه.
ألقت عليه نظرة لوم وهي تقول ساخرة:

- زوجته..حتى أنت مخدوع بها وبه، يا الله..ياله من رجل شديد

الدهاء. سيبقى ابن خالي الذي له فضل ودين كبير في عنقي.

صفقت الباب وراءها، بينما وقف نادر بالقرب من الباب حائراً،

تقدم نحوي يربت على رأسي الملقى بوهن فوق الأريكة أجهدش في بكاء

كالعويل. قال مواسياً:

- أمل أرجوك..مهما كان الذي قالته تلك المرأة وأوصلتك إلى هذه

الحالة من اليأس والإحباط، لا يجب أن تضعفي أبداً، فصالح كما أعرفه

منذ سنوات طويلة رجل بكل معنى الكلمة سيخرج من هذا المأزق أفضل

مما كان.

- استغرب كيف لم تغير رأيك فيه بعد كل هذا. لقد غير أبي رأيه فيه بعد لقائهما في تلك الليلة المشؤومة، وصفه بأنه دجال، ورقة جوكر في لعبة الحياة. من هو هذا الرجل؟ أين الحقيقة؟

- لا أحب الظلم أبداً، طالما هو يؤكد براءته ويطلب مساعدتنا لإثباتها لا بد من مساعدته. أما بالنسبة لوالدك فله العذر، لقد غير رأيه بي أيضاً وعذرتة. أنا وصالح الآن في كفة ميزان واحدة، من أجل ذلك أساعده ليثبت براءته، التي تعني براءتي وبراءة أبيك وبراءة كل من عرفه ووثق به. لقد أخبرتته بأنك لا تريدان الطفل، لكنه لم...

- نادر يجب أن تفهمني.. لم أخبرك بأنني قد رأيتته متخفياً أمس حين كنت أنتظر في المقهى. لقد أخلجني شعوري تجاهه، كان خالياً من أي عاطفة ولا حتى الشفقة، إنني متأكدة الآن بأنني لم أحبه في يوم ما بل كنت أشفق عليه.

- لا تعود لي مثل هذا الكلام أبداً، لأنه غير منطقي وغير مفهوم إزاء ما فعلته من أجله، بالنسبة لي على الأقل، رغم أنني لم أكن موافقاً على ارتباطكما منذ البداية.

- دعني أخبرك وبكل أسف بأنه قال لي الكلام ذاته الذي قالتة زوجته قبل قليل. قال إنه لا ينبغي، سألني إن كنت فعلاً أحمل جنيناً فمن حقه أن يعرف من أبيه. هل ترى مدى ما أنا به من هوان؟ هل ترى كيف تزداد الأمور سوءاً يوماً بعد يوم؟ ما العمل غير قتل نفسي وابني؟

- هذا كلام سابق لأوانه. قد أفهم شعورك ولكنني لا أجد لك العذر. لا يجوز أن تنتكري له، لقد تزوجته باختيارك، وكنت شاهداً على ذلك.

- أسئلة كثيرة تحاصرني، استغرب كيف لم ترد على بالي في حينها. ممّ كان يخشى رجل في مثل عمره ومكانته؟ لماذا كان يتركني أعود إلى بيت أهلي طوال فترة زواجنا القليلة؟ لماذا منعتني من أن أعلم أبي بالأمر؟

- لكنك نسيت فرحته بك، كانت لا تقدر. لم أره بمثل هذه السعادة طول معرفتنا وهي سنوات أكثر من عمرك كما تعرفين.

- لم تكن بأكثر من فرحة الأطفال حين يرضخ الكبار لمشيتئتهم ويحصلون على ما يريدون.

- أمل أرجوك لا تعذبي نفسك، ستتحسن الأمور، سيعرف كل منكما ماله وما عليه. كنت ضد هذه العلاقة منذ البداية، ثمة أمور كثيرة تفرق بينكما ومع ذلك حصل ما حصل. لعله استطاع الوصول إلى قلبك بذكاء أو بدهاء ليس مهماً الآن. المهم شكه بأنك وشيت به.

- السبب كما رأيت وسمعت أثناء التحقيق، الأوراق التي في مخبأ هو يعتقد بأنه سري لا يعرفه أحد سواي.

- على كل حال لقد أخذنا الحديث ونسينا الورطة التي أوقعت نفسك بها. هيا هياي نفسك سأعود بعد قليل لأوصلك إلى المستشفى. سأحاول اللحاق بناهي يجب أن استرجع عنوان بيتي منها.

- لا أظنك ستلحق بها، اعتقد بأنها لن تعيده لك إن كان في نيتها
الإساءة لصالح.

كان قد مضى يومان على وجودي في المستشفى بانتظار ما تسفر
عنه محاولات الطب في إنقاذ الجنين من الخطر. بقيت على إصراري
في وجوب التخلص من الجنين. لم يفتر لساني في ترديد الرجاء تلو
الرجاء للطبيب أن يخلصه من حياة بئيسة. لكن الطبيب حسم الأمر
بنفاد صبر قائلاً:

- إنني طبيب يعني وسيط، يجب أن أقوم بواجبي كاملاً في إنقاذه.
هدأت قليلاً، لذت بوحدي وحزني، وإن لم أتوقف عن البكاء. ابتسم
لي مهدئاً من روعي وقال جملة واحدة جعلتني أتوب لرشدي وأستكين:
- يا صغيرتي هذه أمور تترك لإرادة الله، هو وحده الخالق، وهو
وحده يحيي ويميت.

فتحت عيني بعد نوم متقطع تخالطه كوابيس مرعبة وأحلام جميلة.
كانت كلها حول عودتي إلى أهلي، إلى بيتنا، إلى أبي وأمي. أحسست
كأن هناك من يرمقني أحسست بفرحة كبيرة ظننت أبي قد جاء
للاطمئنان عني. كنت في غاية الشوق لرؤيته. صدمت، من كان يرمقني
آخر من يخطر على البال، كانت عينا صالح، ذاك المتسلل خفية إلى
غرفتي، تصوبان نحوي مثل نصل سام يدخل مباشرة إلى الوريد.
ما زال هارباً خائباً متخفياً. أشحت بوجهي بعيداً وأغمضت عيني
بشدة كأني أخشى أن يقتحمهما ويسكب فيهما سحره الخرافي. كان في

الزاوية البعيدة عن الباب، مختبئاً خلف أصص كبير من نبات الظل،
يتلهى بملامسة النباتات الصناعية المتدلّية فوق رأسه، ابتسم بسخرية
ونفث بعمق، وشرّد إلى البعيد.

ترى هل يتذكّر تلك الليلة التي فرّ فيها وتركني فزعة. فرحت
بوجوده المفاجئ، فقتل فرحتي لحظة أمرني بإشارة من إصبعه أن
أصمت. نكصت خائفة مستجيبة لأوامر رجال الأمن وهم يستدعونني
على عجل.

فتح الباب ببطء ودخل نادر، اقترب من سريري بهدوء ليتأكد إن
كنت نائمة أم لا، قفز بيننا صالح، نظر إليّ بريية، كنت امرأة أخرى،
مسكونة بخوف وحزن لا يوصف. قلت دون أن أخفي اشمئززي ونفوري:
- كأنك كنت معي البارحة. شهور وأنا لا أعرف عنك شيئاً. حين
ظهرت فجأة كنت لي التهم مع أنني عشت فترة قلقة عليك لا أعرف..

قاطعني هاتفاً بطريقة مسرحية:

- قلقة عليّ..

ضحك بامتعاض غير خاف:

- تتساءلين ببراءة، ألسنت من رمى بي إلى هذه المتاهة؟

- لم أعد أفهمك.. الحقيقة أن استمراري معك سيفقدني نفسي.

صدقني لم أعد أريد منك شيئاً سوى أن توضح لي لماذا جرى ما جرى؟

- لم تفهميني منذ البداية. ولم تحبيني. الحقيقة هي التي قلتها
لأبيك أمامي يوم أتيت خاطباً، ثم قلتها لنادر في غيابي. أنك ما أحببتي
قط لكنك أشفقت على رجل عجوز بكى بين يديك.

التفت نحو نادر الواقف بيننا كمدنّب يتحسس رأسه المحاط
بالضماد. قال بلؤم:

- لقد انكشفت لأعييك، أظهرت لي الحب والمساعدة بينما كنت
تضمّر لي الشر، لقد رأيت الكمين الذي نصبته للإيقاع بي بعد وصولي
إلى بيتك.
قلت بألم:

- لا تقل مثل هذا الكلام على إنسان شهيم وقف بجانبنا في
محنتنا، وقد خسر بسببك أبي وهو صديق عمره كما تعلم. تذكر بأننا
بشر لسنا سلعة أو رقماً من السهل التلاعب به أو تزويره.
- لم يثبت شيء ضدي حتى الآن. اعلمي بأنني لن أطلقك ولو
أطبقت السماء على الأرض. هل أخبرتها الرأي الذي كنت تؤكد لي منذ
ابتدأت علاقتي بها.

التفت نحوي والغضب يشتعل في عينيه:
- كان يؤكد بأنك غير كفاء لي. كان على حق.
- لست مسئولة على أي حال، إنه الفشل الملازم لك بسبب
تطلعاتك التي غالباً ما تكون أكبر من قدراتك.
- هذه فلسفة نادر، لعله من أشار عليك بتسليم الأوراق.

- لكنك تعلم أكثر مني بأنني لم أكن على علم بشيء ولا حتى بتلك الأوراق، لقد اكتشفت بالصدفة البحتة.

دخل أحد رجال الأمن، أمسك بذراع صالح ونادر وقال:

- سألني بانتظاركما في الخارج مع الآخرين فمن الخير ألا تطيلا انتظرنا، وإلا اضطررنا إلى اللجوء لطرق أخرى على الرغم من وجودنا في مستشفى.

نظرت نحو نادر فرد علي مطمئناً، لمح صالح نظرة عيني فقال:

- هل بعتماني مرة أخرى؟

رد رجل الأمن بهدوء:

- كان لنا مصادرنا الخاصة، أود أن أعلمك بأن الأستاذ نادر متهم

بمساعدتك على الهروب من وجه العدالة.

- لم أفهم.

خرج رجل الأمن وتولى نادر الشرح:

- لقد أبلغت بهذا الاتهام قبل قليل. رسالة أخرى سلمت باليد

لضابط الأمن تشي بي هذه المرة. دليل مرفق بها لا يقبل الشك قصاصة

ورق صغيرة عليها عنوان بيتي بخط يدي كتبته لزوجتك ناھي قبل

يومين. أضيف عليها عنوان بيت أمل وتوقيت وصولك إلى بيتي.

تحسس الضماد فوق رأسه وقال ساخراً:

- هل رأيت جزائي منك يا صديق العمر؟

- كيف؟ لم أنزل من سيارتي حين لحقت بي.

- بعد وصولك إلى بيتي حسب اتفاقنا رأيتك تعود إلى سيارتك وتدير محركها، لحقت بك وناديت عليك فلم ترد ظننتك لم تسمع بسبب هدير السيارة. اقتربت، أمسكت بمقبض الباب حاولت فتحه لاستفهم منك ما جرى، فاندفعت باللحظة ذاتها فسقطت على الأرض وتهشم رأسي.

كنا مراقبين، لكنني لست من استدعاهم ونصب الكمين. كيف أفعل وأنا محام وأعرف بأنني متهم إذا لم تثبت براءتك؟

- لست غيبياً لأصدقك، لم تخذلني حاستي القوية بالخطر أبداً. كان هناك كمين بانتظاري. لست ممن يمنحون ثقة مطلقة، الثقة في عرفي مثل العملة الصعبة بحاجة دائماً لدعم لتحتفظ بقيمتها.

رد الآخر بتسامح كبير:

- مّم تخشى إن كنت بريئاً، بل لماذا تبحث عن دليل براءتك بنفسك، أخبرهم به وسيتولون الأمر بمعرفتهم.

- هذا الموضوع لا يهمك. لقد انتهى دورك، إن كنت تظن أنك ستأخذها مني تأكد بأن ذلك سيكون آخر يوم في عمرك.

- لقد جريت طعم الظلم على ما أعتقد، وأدركت معنى مقولة أن المتهم بريء ما لم تثبت إدانته. إن سوء حظ أمل أوقعها في موضع الشاهد ضدك، وسوء تصرفي أوقعني بين يدي امرأة حاقدة فوشت بي.

يبدو أن هذه الكلمات أثارت حفيظة صالح فرد بعنف:

- ما يدهشني حقاً هو هذا الانقلاب العجيب في مشاعرك تجاهها، هل نسيت تأكيداتك لي في السابق أنني أسأت الاختيار، وأسأت توقيت الوقوع في الحب.

ابتعد متكلفاً المرح، اختفى خلف الأوص، قال نادر متعاطفاً:

- نعم وما زلت عند رأيي، منذ البداية ألقيت على كاهلها كل العلاقة والآن تلقي عليها اللوم باكتشاف أمرك. صالح استمع لي على الأقل كمحام يا أخي، هناك ما أود فعلاً أن أخبرك به.
- لا أريد.

- كما تشاء لكن لا تنسى لحظة واحدة بأنك ما زلت مطارداً.

لم يرد مشى نادر إليه وقال:

- أمامك مشكلتان، الأولى أنك مطلوب للعدالة بسبب اتهام خطير موجه ضدك. اعتقد أنه من الخير لك أن تسلم نفسك. المشكلة الثانية هي أن أمل حاولت التخلص من الجنين.
صرخ متهكماً:

- نادر أرجوك.. أوجز.. ماذا تريد من ذلك كله، دعك من حكاية

الحمل السخيفة هذه. لم أنجب خلال عشرين سنة زواج والآن تسخران مني وتدعيان هذه الأسطورة.

تبسم نادر وقال برقة:

- لم تعد تتق بأحد ولا حتى بنفسك.

لا أعرف كيف انقلب إلى شخص آخر، شخص مرعب، شخص
قاس لا يعرف قلبه الرحمة، فقد رد على سعة صدر صديقه قائلاً:
- غالباً ما توقعني في حيرة شديدة من أمرك. أحياناً أراك معطاء
مثل أرض خصبة لا تسأل لمن تعطي ولا تريد شكراً على بذلها، وأحياناً
أحسك أرضاً مجدبة.
همس نادر ملتاعاً:
- أهذا رأيك بي..سامحك الله.
- نادر أنا أعرفك منذ الطفولة وحتى الكهولة، أفكارك مثل ملامح
وجهك، جارحة وواضحة وصادقه بشكل مذهل، تتفذهها مثل جلاذ اعتاد
تنفيذ الأحكام بألية وبرود، فلماذا تدعي أمامها هذا السمو الأخلاقي.
أعتقد بأنك تغار مني لأنني وسيم وغني وأنت دميم وفقير.
سكت قليلاً ثم قال ساخراً بقسوة:
- هل ترى شكلك الآن وأنت ترفع رأسك لتتمكن من رؤيتي، إنك
تذكرني بأحدب نوتردام. كان شكله المذعور يزيد من دمامته.
- يا إلهي.. لن تتغير، تخط الجذ بالهزل دائماً لتصل لما تريد،
تقيم عيوب الآخرين وتضخمها وتتبرع بإصلاحها بينما ترى عيوبك
ذكاء وسعة أفق وحنكة.
فوجئت بتطور الأمور بهذا الشكل المؤلم. رأيت نادر مصراً على
إنقاذ صالح أو كما قالها لي قبل قليل، بأن إنقاذ صالح يعني إنقاذ نفسه،

ورأيت في عيني الآخر نظرة متألقة هادئة، لا أعرف كيف تتأني له وهو في قمة المحنة، وظروفه المرعبة.

بهذوء أو لعل من الأفضل أن اسميه برود اقترب من نادر وأمسكه من رقبته بعنف وضغط بكل قوته، حاول نادر الإفلات من قبضته دون جدوى. رأيت الوعيد في عيني صالح اللتين تنظران نحوي بقسوة، مددت يدي وضغطت على جرس الطوارئ المعلق بجانب سريري، مد يده وانتزعه من يدي ثم قطعه ورماه على الأرض. أختل توازنه، ركله نادر بقدمه، انكفاً على وجهه ووقع على الأرض. صرخت من الرعب، فتح الباب ودخل الطبيب والممرضة ورجل الأمن، قال الطبيب:

- أين صالح؟ زوجته تلح على رؤيته تريد إخباره أن والده يحتضر.

اخترق صالح المسافة بين مكانه والنافذة يريد الفرار لكنه اصطدم بنادر الذي ما زال مترنحاً من أثر محاولته خنقه. قال نادر:

- لا أصدق بأنه لا تعليق عندك على خبر احتضار والدك، بينما سابت الريح لتصل إلى أمل وتقضي عليها بهوس غريب تعتبره حباً وولهاً.

- حكاية موت والدي هذه خدعة أخرى فأبي مات ليلة الحادثة، لم يحتمل التفتيش والتهمة الموجهة لابنه الوحيد. أما عن وجود ناهي في هذا المكان فهذا أمر لا يعنيني، منذ الآن هي ليست زوجتي، إنها طالق.

قال نادر :

- لا تفسير لحالك سوى أنك مريض أو مذنب.

قال صالح باستخفاف:

- ثم ماذا.. يا فرويد..

- ثم لا شيء.. سوى أن تكون موضوعياً، لا مجال للهروب من

جديد سلم نفسك.

- تفضل معي أنت والأستاذ نادر.

- صالح أخبرهم عن دليل براءتك كما وعدتني. أرجوك لا تورطني

معك، ليس ذنباً أن وثقت بك العمر كله.

قال رجل الأمن:

- ليس هناك أدلة أكثر وضوحاً مما بين أيدينا. لقد ارتكب الكثير

من الأعمال المشينة بهدوء أعصاب يحسد عليها. كنا نبحت بجدية عن

مرتكبي الحوادث المتتالية حين نكتشفها لكن دون جدوى. ما كان لنا أن

نشتبته به في أي وقت من الأوقات، منصبه الكبير وثقة الجميع به

ومحبتهم له جعل شيئاً مثل هذا صعب التصديق.

صاح بجلد وكبر:

- هذا كله كذب وافتراء.

- ليس افتراء يا صالح بل حقائق. هذه هي الرسالة التي وصلت

السيد نبيل مثبتته ببراهين ووثائق.

- أليس من حقي أن أعرف مصادر هذه المعلومات يا نادر؟

- بلى إنه حقك بلا شك.

تناول نادر الرسالة من يد المحقق، ألقى نظرة عليها ثم أعطاها
لصالح الذي ما أن رآها حتى صرخ:

- هذا خط زوجتي ناهي.

التفت الجميع حول المرأة الملتفة بالسواد والتي أدخلها رجل الأمن
قبل دقائق، بقيت منزوية قرب الباب، كانت تتشج بدموع سخية. تقدم
منها زوجها كاشفاً عن وجهها صارخاً:

- أنت إذن وراء كل ما أصابني؟

نفث وبكت وأنكرت. تقدم منها رجل الأمن وناولها ورقة قائلاً:

- ألم تسلميني شخصياً هذه الورقة أمس وطلبت مني أن أحتاط
لئلا يهرب مرة أخرى؟ ألم أسألك ما مصلحتك من وراء ذلك؟ أجبتي
بأنك زوجته الأولى.

قالت بهدوء:

- نعم.. لقد صبرت كثيراً وتحملت من أجل أن أراه في مثل هذا
الموقف. كان سافلاً، ومنذ البداية عرفت حقيقته. وافق أباه على الارتباط
بي من أجل أموالتي التي سرعان ما بددها، جعلني خادمة للرجل
العجوز. بعد موت خالي لم يعد سبب لمزيد من التحمل.

بعد أن سمعت تلك المكالمة الهاتفية بينك وبينها تواعدها على
اللقاء تلك الليلة وإلى الأبد قررت أن أحاسبك عن الجديد والقديم، عن

عشرين سنة محل، لم يكن لي في قلبك أي قدر من الحب ولا التقدير ولا الاحترام. كنت بنظرك خادمة بلا مقابل.

جمعت كل أوراقك التي تدينك، كنت أعرف أين تخفيها، وسلمتها بنفسي للمراسل وأخبرته أنك ستسافر الليلة. اليوم أيضاً رتبت لك الكمين بالقرب من بيت نادر. وصلت قلبك بقليل عرفت بأنك سترتاب من الهدوء غير الطبيعي في مثل ذاك الحي الشعبي، طلبت من رئيس الفرقة بأن يترك الأطفال تلعب كالعادة في الشارع فرفض. اختبأت في إحدى زوايا الشارع المعتمة بانتظار اللحظة التي ستدفع بها ثمن أخطائك كلها. تدخل الطبيب:

- أرجوكم أن تغادروا الغرفة فهذا مستشفى وليس دار قضاء.

قلت وأنا ممسكة بيده:

- أرجوك يا دكتور أن تنفذ لي رغبتني وتنقذ طفلاً من مصير

مظلم.

قالت ناهي وهي تنتحب:

- لن أصدق أن هذا الحمل حقيقة.

رد الطبيب بأسف:

- نعم إنه حقيقة لسوء الحظ.

قالت المرأة ولهاثها يتقطع:

- هذا ليس صحيحاً. لقد كذب عليها كما كذب علي وهي الآن

تكذب عليكم.

سيق الجميع برفقة رجال الأمن، أمام الباب التقى الأصدقاء
كالأغراب، نادر وصالح في جهة وأبي يتساند على ذراع الأستاذ نبيل في
جهة أخرى، لم يسلم أحد على أحد.

لا أستطيع أن أصف فرحتي بدخول أبي إلى غرفتي على الرغم
من حالة الشلل التي بقيت ملازمة له. قبل أن تتم فرحتي ويصل إلي
عاجلي القدر بألم شديد في بطني، أسرع الطبيب لنجدتي، خرج الجميع
تاركين الغرفة للطبيب والمرضة.

أمر الطبيب الممرضة بأن تستدعي من يساعدها على نقلي إلى
غرفة العمليات ريثما يعد الغرفة لإجراء عملية سريعة لي.

على نقالة خرجت من غرفتي، كنت في حالة تخدير أولي، رأيت
أبي وأمي وأخي وأختي، رأيت بيتنا وغرفتي وأشياء الخاصة، يد رحيمة
تربت على رأسي تلتها أيد كثيرة، تلامسني، تشد على يدي، تربت على
خدي. واحدة بذاتها تلك التي كتبت صك إعدامي من حياة صاحبها.
ألقيت فجأة فوق صدري، كانت ثقيلة عرفتها إنها يد أبي المصابة
الضعيفة ومع ذلك كانت تشجعني.

ابتسامات حلوة ونظرات مملوءة بالحب راحت تشييعني والسرير
مندفع بي بلا ترو، فتح أمامي باب صغير وآخر عريض وغبت عن
الجميع وأصبحت وحدي في غرفة مبردة بشكل مخيف، كأنني دخلت
معمل ثلج. آخر كلمة سمعت نفسي أقولها للطبيب الذي يعطيني

المخدر، من خلال أسناني المصطكة على بعضها "سأمت من البرد،
غطوني".

صدر للمؤلفة:

1997 كان يشبهنى..رواية

1998 الانتظار..مجموعة قصصية

1999 للحب وجه آخر..مجموعة قصصية

تحت الطبع:

رواية

للحب.. وجه آخر

قوله غدئذ نطقوا

نرجو الانتباه..على الركاب المسافرين إلى لندن رحلة "رقم 121" سرعة التوجه إلى الأمن العام لإنهاء إجراءات السفر والتوجه إلى البوابة رقم "7" .. بوابة رقم "7". شكراً.

اندفعت من إحدى زوايا صالة المطار امرأة كانت مختبئة هناك عن الأنظار، تتلفت مستطلعة بحذر، تجد في سيرها موسعة خطواتها. كانت ترتدي بنطالاً ضيقاً من الجينز الأزرق الغامق، فوقه سترة طويلة تكاد تصل إلى ركبتيها بيضاء مقلمة بألوان زاهية تشبه إلى حد كبير المنديل الذي لفت به رأسها، تخفي عينيها خلف نظارة سوداء داكنة تغطي ملامحها، منتعلة حذاء رياضياً خفيفاً، تتأبط حقيبة كبيرة منتفخة بعض الشيء، توحى للناظر إليها بأن محتوياتها قد جمعت وألقت بداخلها على عجل ودون ترتيب.

توجهت نحو ضابط الأمن، ناولته جواز سفرها. نقل نظره بين وجهها وبين صورتها المثبتة على جواز السفر بصرامة، لكن سرعان ما

لانت نظراته المتفحصة حين رفعت النظارة عن عينيها. سمعت صوت الختم يطبع على الجواز فاستراحت، لكنه قبل أن يضع الجواز على الحاجز الخشبي سألها بإنكليزية ركيكة:

- هل أنت إنكليزية الأصل أم بالاكِتساب.

أجابت باقتضاب بإنكليزية متقنه:

- نعم أنا إنكليزية الأصل.

هز رأسه، وبابتسامة خالية من المعنى ناولها الجواز وهو يقول:

- مع السلامة سيده روزا.

تناولت الجواز بيد مرتعشة، حيثه بنظرة شكر وبابتسامة ودودة، لم تفتها حركة رأسه وهو يرد بالنفي على تساؤل مسئول الأمن الواقف عند مدخل البوابة بلباسه المدني. شعرت باضطراب في يدها وهي تتناول جوازها وتخفيه في حقيبة يدها كيفما اتفق كأنها تخشى أن يغير رأيه ويخطفه من يدها. ردت بإيماءة صغيرة من رأسها فقد خشيت الكلام تكشفها رعدة صوتها.

انطلقت من أمامه تعدو صوب السلم الكهربائي المؤدي إلى بوابة رقم "7" للخروج نحو الطائرة، كان الصوت يعلن النداء الأخير لمسافري لندن. وقفت في طابور المسافرين الخاضعين لتفتيش أخير دقيق على جوازات السفر، حقائب اليد الصغيرة والكبيرة، وفي بعض الأحيان الجيوب. بقيت على توترها بانتظار دورها، ضاقت ذرعاً بهذه التعقيدات

التي لا داعي لها، خاصة وأن معظم المغادرين أمامها كانوا من العرب وفي مطار عربي.

كانت تتساءل في سرها، كيف سيكون الحال مع الجنسيات الأخرى؟ لكم اتسعت دهشتها حين رأت رجل الأمن يلقي نظرة بلهاء سريعة على جواز سفرها ثم يدفعه لها وموسعاً لها طريق العبور قبل الآخرين، وكذلك فعل مع الأجانب الآخرين.

في لحظة تجاوزها الحدود مجازاً، سمعت اسمها يتردد عبر الميكرفون " السيدة وردة عرفان، وردة عرفان، الرجاء التوجه فوراً ومراجعة الأمن العام" على الرغم من أن هذه المعلومات الحقيقية غير مدونة بجوازها الإنكليزي، لم تستطع منع قلبها من الدق بسرعة وسريان رعشة خفيفة في أطرافها كأنها تقول لهم "ها أنا ذا".

إذن.. لقد اكتشف والد زوجها سفرها رغم الحيلة التي تدبرتها، لم تحمل حقائب ولم تغادر البيت إلا قبل ساعة واحدة من موعد الإقلاع وكأنها ذاهبة للتسوق. يا له من رجل لا تخفى عليه خافية. لقد لحق بها إلى المطار في محاولة مستميتة لمنعها من السفر. الله وحده يعلم أي تهمة ألصقها بها حتى يعيق سفرها، تدافعت بين الجموع حتى دخلت الطائرة وجلست في مقعدها، تذكرت بأنه لا يعرف أنها تحمل الجنسية الإنكليزية ولا اسمها الآخر، فهدأت نفسها.

أقلعت الطائرة. بهدوء طلبت كأساً من الماء، أحست بالقطرات الباردة التي ترتشفها ببطء تخفف روعها وتعيد لها السكينة والفرحة. لقد

أفلتت أخيراً من حصار أهل زوجها وإصرارهم على إدخالها إلى المستشفى لإجراء بعض الفحوص الطبية.

لقد شعرت خلال الشهور الماضية بوهن عام ودوار خفيف ينتابها بين حين وحين، لكن الأمر استقل أثناء وجودها بينهم، عافت نفسها الطعام فقدت رغبتها في العيش والحياة. كانت تعرف أسباب كل ما تعانيه، ليس أكثر من توتر في حالتها النفسية إثر غياب زوجها في مكان تجهله لأسباب لا تعرفها منذ شهور طويلة. لقد وجدوها فرصة مناسبة لحجزها في بلدهم وادعائهم بأنها بحاجة لإجراء بعض التحاليل الطبية في المستشفى. لم تقتنع بهذا الاهتمام المبالغ فيه من الجميع بصحتها.

كانت غيبة زوجها في المرة الأخيرة تثير القلق فعلاً، لقد غاب دون إعلامها عن عزمه على السفر، خرج ولم يرجع ولم يخطر بها بوجهته، مرت أسابيع وشهور، كانت مدة كافية ليعود أو يتصل بها، بدأت تسأل عنه في الأمكنة التي اعتاد التردد عليها دون جدوى. طرأت لها فكرة أن يكون قد عاد إلى أهله، سارعت بالاتصال بهم، أكدوا لها ببرود منقطع النظير بأنهم لا يعرفون شيئاً عنه، لم تصدق. كانت تعرف الكثير عن تفكك علاقاتهم الأسرية، ومع ذلك لا يمكنها أن تصدق هذه البلادة في المشاعر تجاه ابن لهم أو أخ مفقود تماماً ومنذ عدة شهور.

اقتنعت بأنه موجود بينهم ولا يريدون أخبارها، فسافرت إليهم دون إخطارهم. حقيقة أنها لم تجده هناك لكنها أحست من إصرارهم على

الإدعاء بعدم معرفتهم أكثر مما تعرف بأنهم يخفون عنها شيئاً ما. قال الأب بشكل هازئ " سيظهر، لقد حدث وغاب وانقطعت أخباره سنوات طويلة قبل ذلك، ثم ظهر " كانت واثقة بأنهم يضلونها لسبب تجهله، وللسبب ذاته، يريدون صرفها عن فكرة العودة مرة أخرى إلى لندن لمعاودة البحث عنه بإدخالها إلى المستشفى.

لن تنسى ما تنسى أول أمس، كانت في غرفتها تعد حقيبتها للسفر، دخل الرجل الكبير عليها دون استئذان وهو في قمة الغضب، أنفاسه تتهدج ووجهه ينضح بالعرق الغزير مثل بركان هائج، حدجها بنظرة مرعبة اقتحمت أعماقها، فخفضت بصرها. أدركت مقدار معاناة زوجها نجم مع رجل كهذا. كثيراً ما حدثها عنه، لكنها لم تتصور أبداً أن يكون على هذا القدر من الصلف والعنت. انقض على حقيبة السفر وقلبها رأساً على عقب، أدار ظهره وقبل أن يفتح الباب ليندفع خارجاً كما دخل، قال:

- لا تفكري بالسفر أبداً، لا يمكن أن يحصل هذا وأنا حيّ أرزق، حين يظهر زوجك يطلها ألف حلال. مفهوم..تسافرين وحدك... لا . هالتها الطريقة التي يكلمها بها وكأن لسانه سكين حاد يجز أيام عمرها كله حتى الآتي منه. يعيدها إلى حيث بدأت وانطلقت، يعيد تكبيلها بأسطورة البنت المسلوقة الإرادة والكيان، ضغطت على أعصابها وقالت بتلطف:

- سأرجع إلى هنا حالما أنهى بعض الأشياء الضرورية هناك.

- لا أفهم ما تقولين، أنت امرأة أولاً وأخيراً مثل كل النساء، مهما تعلمت وتغربت، لك ما لهن وعليك ما عليهن.

اهتاجت غاضبة، فقدت بلحظة واحدة مبادئها وتحضرها واعتزازها بنفسها. بضع كلمات قاسية تدافعت إلى وعيها من عنجهية رأس غاضب قلبت كيائها وهيجت أوجاعها القديمة الغائبة في اللاشعور منذ سنين طويلة، كلمات سمعتها كثيراً وهي طفلة تنمو داخل قمم بلا وجود حقيقي، لم تستطع السيطرة على نفسها فصرخت:

- لا لست أي واحدة، إنني إنسانة مختلفة. رفضت أن أكون مثلهن شيئاً ماركوناً على شمال الحياة. سأسافر متى أريد، وإلى أي مكان أريد، لا سلطة لك عليّ.

- سنرى..

صفق الباب وراءه بعنف، لحظات وتناست كل المعاني التي بثها حولها مثل الوباء، استأنفت عملها كأن شيئاً لم يكن، لكنه أطل عليها من فرجة الباب مهدداً بسكين كبيرة هزها أمام عينيها مرات عديدة ثم اختفى. ارتعدت غضباً وازداد إصرارها على السفر.

شعرت بخوار قواها من جديد، سألت المضيفة شيئاً بارداً وحلواً، شربته لم يتحسن الحال، أشارت عليها المضيفة أن تتمدد وتجعل رأسها في وضع منخفض عن قدميها ففعلت. شعرت ببعض راحة، استعاد فكرها نشاطه وطفق يبحث عن مكان الغائب الحبيب. أين نجم؟ أين

يمكن أن يكون؟ أين ذهب ولماذا هذا الغياب؟ أبعد كل ذلك الحب
يغيب ولا يطمئنها عن نفسه أو يطمئن عليها؟

زفرت بحرارة، تذكرت بأنها عائدة إلى لندن، حيث عالمها الخاص
والحميم، حيث لسكين المطبخ مهام أخرى غير أن تشهر بوجهها
لتهديدها، عائدة إلى بيتها، البيت الذي عاشت فيه مع نجم سنوات
سعيدة. من هناك ستعاود السؤال والبحث.

للمرة الألف تحاول أن تتذكر تفاصيل يوم خروجه آخر مرة من
البيت ولم يعد إليه، فتخذلها ذاكرتها. لم يكن بينهما أي خلاف، بل على
العكس كان الحب ما زال مشتعلًا بينهما رغم مرور سنوات على
زواجهما.

لم ينقطع بينهما الحوار الجميل في أي فترة من فترات علاقتهما،
منذ النقيا أول مرة، تحابا سنوات عديدة، وتزوجا. مضت السنوات رجة
كلها تفاهم وود وحب، لم يحصل أن أخفى أحدهما شيئاً عن الآخر.
ابتسمت بوهن للخاطر الذي مر بخيالها، لقد حرص كل منهما
على أن يبدأ يومه بكلمات محددة يقولها للآخر، سواء كان معه أو بعيداً
عنه، أه ما أجملها من أيام. كان يقول من يستيقظ أولاً:

- كيف أصبحت؟

فيجيبه الآخر:

- كما أمسيت أحبك بجنون.

فيهمس بمحبة:

- وأنا...

تقلبت على المقعد الضيق، التقت عيناها بعيني المسافر الجالس بجوارها تحديقاً بها، مراقباً حركاتها وسكناتها. تضايقت من هذا التطفل فاستدارت بوجهها إلى الناحية الأخرى. سألتها بالعربية إن كان يستطيع مساعدتها، لم ترد ولم تدع أي انطباع يتسرب إلى وجهها بأنها فهمت لغته، تمننت من أعماق قلبها أن تكون لغته الإنكليزية ضعيفة لا تساعده على فرض نفسه عليها طوال ساعات السفر. يبدو أنه اقتنع فسكت مرغماً.

لعله من الفئة التي تتطفل على جيرانها بالسفر لترجية الوقت غير مبالية إن كان الآخرون لديهم الرغبة نفسها أم لا. لا شك أنه سيترك مكانه للبحث عن أذن فضولية تتحرق شوقاً لسماع أسرار ومشاكل الغير. لم يمر وقت قصير إلا وسمعت صوته في الجهة المقابلة يحاول فتح أحاديث مملّة تافهة.

غرقت من جديد في خيالها الجانح أبدأً نحو الحبيب الغائب الذي لا يغيب. ملامح وجهه نجم الوسيم الرائع تسطع في مخيلتها، الفنان الرسام الذي يسري فيه منه مسرى دمائه في العروق. كان فناناً حقيقياً، ليس في مجال الرسم التشكيلي فقط، بل بكل سلوكياته وتصرفاته، شكله كلامه ومشاعره، كل ما فيه ينطق بإنسانية رائعة. بدل حياتها، أسعد أوقاتها، أعاد لها ثقّتها بنفسها وبالناس، علمها الحياة، وعالجها من عقدها.

"روزا يا جميلتي" هكذا كان يناديها منذ تعارفا. هل أحببت الاسم أم المناداة أم من كان ينادي؟ لم تكن تدري. حين منحت الجنسية الإنكليزية بدلت اسمها الحقيقي بالاسم الذي اختاره لها نجم. التصقت باسمه دون أن يدري، أصبح اسمها روزا نجم. ضحكت.. وقد تذكرت أنها ألحقت نفسها باسمه قبل أن يتزوجا، بل لعلها في ذلك الوقت لم تفكر بأنها من الممكن أن تتزوج منه أو من غيره.

توقف عقلها عند يوم بعينه، لعله يوم بداية النهاية دون أن تقطن لذلك، إذ لا بد لكل نهاية من بداية. كان عائداً من سفر طويل، تذكرت كيف دخل عليها حزناً حزناً لم تره يعيش مثله كل سنوات معرفتها به. صحيح أنه كان إنساناً ميالاً للحزن بطبيعته، وصحيح أيضاً أن حياته سلسلة من الأحزان، لكن أبداً لم يصل إلى هذا القدر من الحزن منذ أن عرفته.

أه.. ها هي تتذكر شيئاً آخر.. كان ثمة تغيير في الأشهر الأخيرة قبل هجره للبيت، أصبح عصيباً متقلب المزاج، يحتفظ بإصرار عجيب على مسافة معينة بينهما لم تكن قائمة في يوم من الأيام. اعتقدت ولفترة طويلة بأن التغيير جاء بعد عودة العلاقات بينه وبين أهله، لم تبعد بتفكيرها أكثر من ذلك، لم تحاول أن تعطي الموضوع أهمية أكبر.

كثيراً ما أنحت على نفسها بالملامة لأنها ألحت عليه أن يستجيب لإلحاح والده بأن يزوره مع زوجته. حاول التملص من إلحاحها، أعاد

على مسامعها ما رواه لها مراراً عن معاناته من ذلك الأب الصلب، لكنها رفضت الاقتناع، قال بألم:

- لمن أعود وقد ماتت أمي حزينة على فراقني؟ قلب أبي مثل الصخور التي عاش يقتلعها من أراضيها البور الشاسعة بإصرار وصبر عجيب، ويدفنها في قلوبنا الغضة. كانت أراضيها البور تخرس وتزهر وتثمر، وكانت قلوبنا تتصخر ويعشعش فيها البوار. بقدر ما كان مزارعاً بارعاً كان أباً فاشلاً.

- لكنه أبوك يا نجم. لا أصدق أن قلبك الكبير لا يسامح ولا يقدر الهوة الطبيعية بين الجيلين. أرجوك أن تلي له رغبته.

- روزا اسمعيني يا حبيبتي، إذا أصرت على السفر سأفعل من أجلك ومن أجلك فقط، لكنني الآن مشغول البال بأمر خطير، حياة أو موت. اصرفي فكرة السفر من رأسك الآن وأعدك بالذهاب حالما اطمئن على ما يشغلني هذه الأيام.

- ما الذي يشغلك؟ يجب أن أعرف.

- لا أستطيع إخبارك الآن. كل ما أريده منك الآن أن لا تنسي شيئاً مما أخبرتك به عن قسوة أبي حتى تعرفي كيف تتصرفين معه إذا ما دعت الحاجة لذلك. لا بد وأن يكون هناك سبب خفي وراء إصراره على العودة الآن، لقد مرت سنوات طويلة من الاغتراب هروباً منه ومن قسوته، لم يهتم لمعرفة أين كنت وكيف أعيش. روزا أنت الوحيدة التي فهمتني أنت وحدك عالمي.

لم تأسف على عمل قامت به في حياتها قدر ما أسفت على تشجيعها له للقيام بتلك الزيارة. هناك رأت بعينها قسوته غير المتناهية على الجميع وعلى نجم بصورة خاصة. لن تنسى كيف استقبل ابنه العائد إليه بعد سنوات طويلة.

حين عاد نجم إلى بلاده كان قد استرد حياته الضائعة من جديد، عاد رجلاً قوياً، رساماً ونحاتاً ناجحاً وذائع الصيت، عاد متزوجاً ومستقراً نفسياً وعاطفياً، متخلصاً من كوابيسه التي أرهقت طفولته ومطلع شبابه، سبعة عشر عاماً من عمره عاشها في كنف أب كان يقتله في كل يوم مائة مرة.

كان يمقت لون بشرته البيضاء وشعره الأشقر وعينيه الزرقاوين. كان يراها صفات رقيقة لا تليق بالرجال، تسلبهم خشونة الرجولة كما يزعم، يعتبرها المسئولة المباشرة عن عدم تحمله أعمال الأرض الشاقة مثل اخوته الآخرين. كره رقة طبعه، ولينه وعطفه الإنساني الذي يعامل به الفلاحين العاملين في الأرض، سمات مثل هذه ليست من سمات الرجال بشكل عام وملاك الأراضي بشكل خاص، لذلك كله أطلق عليه اسم نجمة بدل نجم . تنهدت بوجع وألم من مرارة الذكريات..

- سيدة روزا هل أنت بخير؟ هل انخفضت حرارتك؟

فتحت عينيها فانهاالت الدموع العالقة بين رموشها، كانت مضيئة الطائرة فوق رأسها تبتسم لها بعذوبة، أجابت:

- من فضلك هل لي بكوب من الحليب الدافئ؟

- بكل سرور .

انقطع صوت الموسيقى، علا صوت الطيار يخبرهم بأنهم قد اقتربوا من أجواء أوروبا وغيومها الثقيلة، ولسلامتهم عليهم بالاحتفاظ بحزام الأمان مربوطاً، تقدمت المضيفة لتساعدنا على إحكام الحزام حول وسطها بعد أن ناولتها كوب الحليب الدافئ، جست جبينها، ما زالت درجة الحرارة عالية، تركتها لحظات وعادت لها بدواء خافض للحرارة، ألقت عليها غطاء صوفياً، وبابتسامة رقيقة، تمننت لها نوماً هادئاً.

حاولت.. لكن كيف تنام، شهور وهي لا تعرف النوم الطبيعي، قلقة على نجم. يا رب كل شيء يهون إلا أن يكون.. لا قدر الله، نتشتت أفكارها وراء نفسها ووراء حبيبها وزوجها.

الحزام يقيدها بالمقعد الضيق، عاشت زمناً من عمرها مقيدة بقيود أعاقت حركتها، أعاقت فكراً، أعاقت نموها. سنوات طويلة مرت قبل أن تتفهم ماذا تعنى كلمة بنت، ولماذا كان أبوها يكره خلفه البنات. كانت ولادتها بعد ولادة صبيين، وجاء بعدها صبيان آخرون، ومع ذلك أسقطها من حسابها. كانت تسمع أمها تردد بين الأهل والجيران بمناسبة ودون مناسبة بأن زوجها لم يبارك لها بعد ولادة ورثة بل واساها قائلاً: "ولا يهملك خيرها في غيرها" لم تكن تفهم معنى هذا الكلام، لكن مع بداية وعيها، كان لتلك الجملة التي ترددها أمها وقع نصل سكين حاد غرس في لحمها الطري فيدمي قلبها، ويقطع خيوط الود بينها وبين أبيها، بل وبين نوعها وفصيلتها المرفوضة.

مرفوضة، كلمة عذبتها، تراها معلقة بين أهدابها سواء كانت نائمة أو كانت مستيقظة، مع طلوع شمس كل يوم تتعزز في مشاعرها. أشهروا بوجهها عقاب جريمة كونها بنت بعد انتهاء مرحلة دراستها الابتدائية، حرموها من إكمال دراستها أسوة باخوتها. قرأت في الكتب حكاية وأد البنات في الجاهلية، ثمة وجه شبه بين حالها وحالهن، أوصلها تفكيرها الصغير إلى أنهن أفضل منها حالاً، كن مرفوضات حسم أمرهن، وهي مرفوضة لكنها تموت كل يوم.

كان مأتها الحقيقي يوم أخبرت بأنها لن تذهب للمدرسة مرة أخرى، لم تفلح أمها بإقناع أبيها بعودتها للدراسة، ولم تفلح كذلك بإجبار البنات على الرضوخ لمشیئة أبيها دون اعتراض، تمردت وتجرات، وسألته، أجابها بصخب ساخر:

- ماذا سيفيدك التعليم، مصيرك للزواج فهل ستعلقين الشهادة في المطبخ، هيا أبقى مع أمك وتعلمي منها شيئاً يفيدك ويفيد أسرتك مستقبلاً.

لا تعرف كيف مرت الأيام الطويلة وهي منبوذة في زوايا البيت تهتم بشؤون كل فرد فيه إلا نفسها، غريبة وسطهم لا يسألونها عن رغباتها وطلباتها، لا يعرفون إن كان لها طلبات من أي نوع، لا يشاركونها الرأي ولا الحديث، بل لم يحسوا بوجودها.

في تلك الفترة من طفولتها، انحصر تفكيرها الصغير بإيجاد طريقة مرعبة تلفت نظرهم، تجبرهم على سماع ضجيج صمتها المالى كل

وجدانها. جاءت الفكرة، وهللت لها.. الموت، ستجعلهم يكونها كثيراً،
ويندمون بعد أن يعرفوا قيمة وجودها ومحبتها لهم. لكن.. ظهرت لها
مشكلة أخرى كيف تموت؟

لجأت إلى الله، تصلي وتطلب منه كل ليلة قبل أن تنام أن يميّتها،
وانتظرت... لم تتحقق رغبتها، بل صارت تكبر مع الأيام وتزداد شباباً
وحيوية. في الثانية عشر من عمرها نبذت فكرة الموت، وابتدعت لنفسها
أحلاماً وردية، ستصبح مهمة ليفخروا بها. لكن كيف؟ اهدت للوسيلة،
يجب أن تتعلم، ولكن العلم من المحرمات.

لم تستسلم، كلما تسرب القنوط إلى نفسها كلما تشبث بأحلام اليقظة
التي كانت تريحها، تحمل لها بعض أمل، فتسترد عزمها، وتجهد فكرها
بإيجاد وسيلة ما. ترى نفسها بعين الخيال من العمالقة التي كانت تسمع
عنهم في القصص، فتكسر قيودها وربما قتلت السجان أيضاً.

أوقظت مرة أخرى من أوهامها، انتزعت من عالمها الخاص الذي
ابتدعته لنفسها بأن تعلم نفسها بنفسها. كانت تسرق كتب أخويها الأكبر
والأصغر، بنهم عجيب، واستيعاب مرعب، كل ما تقرأه وتتعلمه يثبت في
عقلها. في الوقت الذي خطر لها فيه أن تفاجئ أباهما بأنها على استعداد
للتقدم لامتحان نهاية المرحلة الإعدادية من المنزل، كان هو يعد لها
مفاجأة أكبر وأعنف، فقد قرر تزويجها. كالعادة لم تستطع الأم شيئاً،
كانت تعرف أن إرادة الأب من إرادة الله ومع ذلك جازفت وسألت:

- لكن يا أبي لا أشعر بأبي ميل نحو ابن عمي، لا أقول لك أنه مثل إخوتي، ولكنني أكاد لا أعرفه ولا أتذكره، لنتظر عودته.

- ما شاء الله، كبرت وصار لك شور وقول، الولد في ورطة ويجب إنقاذه، هل نتركه يضيع هناك، تخطفه بنت إنكليزية يدّعي أنه يحبها، كلام فارغ. استعدي ستسافرين بعد أسبوع مع عمك إلى لندن وتزوجينه هناك.

تمنت من كل قلبها، وهي في قمة انكسارها أن يكون ابن عمها هذا منقذها من سجنها، تمنّت أن تجد معه مكاناً خاصاً بها وحياة أرحب، لكن خاب رجاؤها مرة أخرى. كان الزواج طوق نجاة مثقوب أوصلها إلى حيث لا عودة.

كان عمار ابن عمها إنساناً حقيقياً، غير كل من تعاملت معهم من أفراد عائلتها. لم يستطع أن يستمر في خداعها بعد أن عرف عدم قدرته على نسيان من يحب، لم يقبل لها هوان إعراضه القسري عنها. فحين سألته بود زوجة عاقلة عن سبب شروده والحزن الغارق فيه يوماً بعد يوم، فاجأها برد مهذب موشى بمحبة، لكنه كان مثل سكين ثلم، فصل حياتها إلى حيتين. صارت تقول "قبل ذاك الموقف كنت امرأة مطحونة" وبعده "أصبحت امرأة متحررة حتى من الشعور بالظلم". قال:

- وردة أنا لا أكرهك، أنت بنت رائعة، تستحقين كل حب ولكن قلبي متعلق بأخرى ولا قدرة لي على فراقها، لقد حاولت كثيراً وفشلت، سامحيني، اطلبي ما تشائين سألبي..

لم تكن، لم تشعر بالضياع، لم تشعر باحتياجها لأي كائن كان، تريد نفسها، إطلاق سراح نفسها وأنووتها ووعيها بنفسها وقيمتها. لم تكن تعرف أن عقلها أصبح مدرباً بهذا الشكل الفذ على استغلال الفرص، فلتقايض عماراً. إذا استجاب لطلبها، ستعتبر ما حصل ضربة حظ رائعة. قالت:

- ليس لي غير مطلب واحد، قد تستطيع مساعدتي على تحقيق حلمي بالتحصيل العلمي. على هذا الشرط فقط أوافقك على فض عقد هذا الزواج عن طيب خاطر، تزوج من شئت لكن لا نخبر أهلينا بشيء من ذلك في الوقت الحاضر. ما رأيك؟
- موافق، سأكون لك أماً حقيقياً.

ما كان أروع من أخ. مرت ثلاث سنوات على انفصالهما، وأنهى عمار تعليمه وقرر العودة مع زوجته وابنته، أراد اصطحابها ليواجهها الموقف معاً لكن هيهات، فهي لم تعد وردة التي يعرفها، لقد أصبحت على أعتاب الجامعة.

جن جنون الأهل أرسلوه مرة ومرة ليعود بها، كان يأتي كما يطلبون منه لا ليأخذها بل ليطمئن عليها ويشجعها، حتى يأسوا وتناسوا.
أعلن الطيار وصولهم إلى مطار هيثرو ومباشرته بالهبوط، انفجرت أساريرها، ها هي في لندن مرة أخرى، سنوات طويلة عاشتها هنا، أكثر من نصف عمرها. بسرعة ولهفة وقفت بين المسافرين استعداداً للنزول،

شدت قامتها وابتسمت لكل من حولها. تحررت مشاعرها، أنها في مكانها الصحيح.

بخفة فراشة انسلت وسط الجمع المتدافع نحو باب الخروج، شاركت الوجوه الضاحكة من حولها تحديها لتعب ساعات الرحلة الطويلة المنهكة، على الرغم من ارتفاع حرارتها التي تنفث مثل جذوة النار في جلدتها فيتقصد العرق الغزير من جبينها، تحاملت على نفسها وسارت عبر الممرات الطويلة ممثلة بشعورها بذاتها، ستعود إلى بيتها وناسها وأشائها، ستستعيد شعورها التام بالرضا في آخر النهار بعد إنجاز عملها.

قبل أن يغمرها شعور الأسف لغياب نجم عن البيت كانت قد وصلت أمام ضابط الأمن، لا تعرف متى انتهت كل الطوابير التي اصطفت أمامها وخلفها وعلى جانبيها. نظرت المرأة إليها بجدية تتناسق مع زيها الرسمي، لكن تحيتها المرحبة وابتسامتها العذبة لطفت منظرها الجاد. لن تسألها أن كانت إنكليزية أم متجنسة، لا حشرية هنا. الجواز سليم، هي إذن إنكليزية ولها كافة الحقوق.

سألته أسئلة روتينية، كأنها تطمئن عليها. تدريجياً أو بسرعة استردت إنسانيتها المسلوقة، من حق كل إنسان أن يعامل باحترام، دون نظرة اتهام تتركه مرتاباً حتى في نفسه.

انتهت إجراءات الدخول، دقائق أخرى وعبرت باب الخروج الأخضر بثقة. ها هي خارج مبنى المطار، تنتظر دورها في طابور

طويل أمام موقف سيارات الأجرة، ألقت بنفسها المرهقة على المقعد الخلفي حالما جاء دورها، وبصوت واهن هادئ أخبرت السائق عنوان بيتها.

اتسعت فرحتها، تمددت حتى شملت روحها وجسدها المنهك، كأن لها أجنحة فراشة ملونة طليقة، طغت على قلقها. السيارة تنطلق عبر الشوارع مخترقة ضبابها المعهود، حين عبرت فوق الجسر، عرفت أنها اقتربت من بيتها تحركت مثل طفلة تلهو وألقت نظرة ود على جانبي النهر، ثم عادت وأسندت ظهرها إلى مقعدها واستنشقت الهواء النظيف وزفرته على مهل.

ألقت أحمالها على مدخل شقتها ودخلت تنفثها، كم تمنيت لو تفاجأ بوجود نجم في أحد أركانه الخاصة، يعمل بجدية كالعادة على إنجاز لوحة ما، أو يدخن هناك أمام النافذة ويبيده قذح قهوته المعطرة، أو مستلق للراحة أو للتفكير بفكرة جديدة. أمام الصمت الموحش حولها وهي تطوف في أرجاء البيت ماتت أمنيتها.

استكانت لقدرها، كأنها بدخولها إلى البيت عادت جنيناً إلى رحم حميم، مؤنس كل ما به، كأنها لم تفارقه منذ شهور، خيل إليها أن وسادتها ما تزال رطبة من أثر الدموع الكثيرة التي كانت تنزفها ليلياً منذ غياب نجم عنها.

شعرت بتعب مفاجئ ودوار، ورغبة قوية في القىء، أسرع إلى سريرها ولا تدري هل نامت أم غابت عن الوعي، لكنها استيقظت عدة

مرات في الليل على ألم غريب، لم تستطع تحديده، كانت في كل مرة تتناول بعض المسكنات ثم تغفو لتعود للاستيقاظ وللألم والقلق.

كان صباحاً بارداً، بصعوبة نزلت من فراشها، لبست روباً صوفياً سميكاً وطويلاً، بدا فضفاضاً حولها عن ذي قبل، لاحظت فقدانها بعض وزنها. لا بأس حالما تستريح ستسترد عافيتها. أعدت لنفسها كوب شاي وجلست على الأريكة الجلدية التي كانت مقراً دائماً لنجم حين يكون في لحظة تفكير أو تأمل، أو في لحظة استلهاهم لون جديد وفكرة جديدة في اللوحة التي يعمل بها. شعرت بقشعريرة من برودة الجلد أو من سخونة جسدها الملتصق به. قبل انتهائها من احتساء الشاي، أنزلق جسدها بلطف فوق الأريكة، وتمددت عليها، وسرحت تتأمل آخر لوحاته.

ما زالت على الحامل الخشبي، ناقصة لم تتم، رجل يمتطي صهوة جواده، نظرتة مملوءة أملاً لكنه يستجديها من خضرة البساتين اليبانة، فتبدأ الخضرة تتبدد بالتدرج ثم يغلب اللون الأصفر والأحمر. في زاوية من الزوايا طفل محزون باك، مشعث الشعر حافي القدمين، فراشة ملونة تحوم حول رأسه المتدلي فوق صدره.

تحسست أطرافها، لم تعد تحس بها، لعل المسألة أكبر من ظنّها، لعلها مريضة فعلاً وليس الأمر كما تعتقد، بأنه مجرد قلق أو خوف أو غضب. أو لعل روحها باتت تتمنى فراقها لكثرة ما تحملت من الهموم فوق طاقتها. رجرجت جسدها بعنف، تريد التخلص من الحالة الموحشة

المخيفة، كان ثقيلاً بشكل غريب. إلى متى تسبح ضد التيار؟ لقد ذهب نجم من حياتها ولن يعود.

لأول مرة تنفجر تلك الحقيقة مثل قنبلة موقوتة، بقسوة وبوحشية في عقلها، لم تجد في نفسها القوة على تقبل الأمر. وجدت نفسها حزينة، زاهدة في العيش، فاقدة نعمة التصالح مع الذات التي أصبحت تعيشه منذ أن تعرفت على نجم.

نفسها تتسرب منها، الوهن يزداد، الحرارة تزداد ارتفاعاً، تشعر بجسدها كأنه يذوب، الألم يشتد، يتنقل، يتمدد، سيفتك بها لا محالة. ماذا بإمكانها أن تفعل لتساعد نفسها. تذكرت بأن الباب موحد من الداخل، ماذا لو حصل لها شيء، لم تخبر أحداً بعودتها، لا بد وأن يعرف أحد ما أنها هنا وأنها متعبة، وأنها لم تجد نجم هناك ولا هنا.

تحاملت على نفسها وبصعوبة بالغة وصلت إلى الباب وفتحت الرجاج الداخلي، ثم عادت ببطء نحو التليفون قبل أن ترفعه علا رنينه، ما أجمل هذا، هناك من يطلبها على الخط الآخر، رفعت السماعة وصاحت دون أن تعرف من المتكلم "أنا هنا وحدي وبحاجة للمساعدة" سقطت أرضاً فسقطت يد الهاتف على أرض الغرفة فكان وقع اصطدامها بالأرض الخشبية مثل صوت استغاثة مخنوق.

استفاقت وجدت نفسها ممددة على سرير بارد في غرفة باردة موحشة، أطبقت عينيها، تحتمي بإغفاء مصطنع، لا تعرف وجهاً من الوجوه التي تطل عليها بين فينة وأخرى، عيون غير بشرية، ترى بياضها

أشدّ بياضاً وأكثر اتساعاً من المألوف، ألوانها معجزة، ترسل إشعاعاً يفتك بشجاعتها التي تتحصن خلفها. العيون السوداء شديدة السواد تخترق أحزانها، والأخرى الزرقاء تزرع بها الخوف من هذا المجهول الذي يصارعها، والخضراء تستدرجها لسهول وهمية لا حياة فيها. لم تسأل أين هي ولا ماذا ألم بها، تأكدت بإنها مريضة.

كانت تشعر بنفسها الكبيرة تصغر في هذا الفضاء الممتد، فاقدة القدرة على السيطرة على أي جزء فيها، كل ما بها ليس منها، لا مفر سوى أن تلوذ بالأجفان، تختفي خلفها فترة ثم تعود وتطلق عينيها باحثة في الوجوه والأجساد، لا تفاصيل هنا أو هناك. وجوه الجميع مختفية خلف القناع الواقعي، والأيدي ملتفة بالقفازات الطبية الرقيقة، سمعت أحدهم يتكلم بغضب وبصرامة، صوته ذكرها بنجم، فتحت عينيها، تقدم طبيب منها وقال:

- هل صحوت تماماً؟ هل تسمعيني؟

هزت رأسها بالإيجاب وهمست بوهن:

- هل أتى زوجي..

تجاهل السؤال وقال:

- ستبقين تحت الملاحظة بضعة أيام، يجب إجراء بعض الفحوص

الطبية السريعة والضرورية.

- من أحضرني إلى هنا؟

مد يده برزمة أوراق تناولتها بصمت، حين خروجه فتحت الأوراق
ورأت خط نجم الجميل مجدولاً فوق الورق، تتعاقب كالعادة أحرف أبجديته
الخاصة به. قرأت بتمهل.

روزا الحبيبة.

روزا يا جميلتي التي لم تفقد روعتها حتى وهي في غاية المرض.
أنا سبب ما أنت فيه، ليس عن قصد، إلا إذا كان من الممكن لإنسان أن
يؤذي نفسه. حين تعرفين الحقيقة ستفجعين بي وبنفسك، لكن ما باليد
حيلة. لقد قضيت على نفسي ثم عليك. لأنك أعلى وأعز عليّ من نفسي
أحسست حين رأيته وأنت على هذه الحال كأنني قتلت نفسي مرة أخرى.
أن كل ما عانيته في غيابي من قلق وخوف ودموع لا شيء أمام الهول
الذي ينتظرك وستعيشينه يوماً بعد يوم. سامحيني.. أحببتك كثيراً،
وفرحت وسعدت بوجودك في حياتي، قلبي الذي أحبك معك ولك، لم
يحب أحد مثل حبه، ما عرف عشق مثل عشقه. أعرف أنك أحببتني وما
زلت لكن لم يتعفف قلبي مثلما قلبك فعل.

لقد قاومت الوحدة والجراح والاعتراب، ولم أقاوم أنا. ثمة أشياء
تأتينا بلا سابق إنذار ولا قدرة لنا على ردها. ألم تتساءلي كثيراً عن
المعنى الكبير لوجود الله، إنه ذات الشيء الذي يهيب بنا أن نتغلب على
عجزنا.

نجم عبد الله

لم تفهم عن ماذا كان يتكلم، لكنها ضربت الجرس لتستقهم من أتى
بالرسالة ومتى. أجابت الممرضة:

- أرسلها لك أحد المرضى المقيمين هنا في المستشفى.

- أرجوك خذيني إليه، أو اطلبي منه الحضور إليّ.

غابت الممرضة، وغابت هي في دوامة اللغز الجديد، ماذا ألمّ بها،
كيف يؤذيها من كان سبب ميلادها من جديد. نجم الإنسان الرائع الفنان
الأصيل، الذي لا يطاء الأرض إلا بخفة قط أليف لئلا يزعج أحداً يجرؤ
ويقول إنه سبب كل بلاء أصابها.

منذ أن تعرفت عليه هنا في لندن، وهو في كل يوم يهبها سنة من
سنوات حياتها المفقودة، على مدى سنوات وسنوات. لق ابتدأت حياتها
فعلاً في صباح يوم جميل، لم تكن تعرف أنها على موعد مع الحياة
والسعادة فقد نسيت تماماً كيف تبدأ الحياة أو كيف تنال السعادة.

في ذلك اليوم وكان يوم عطلتها الأسبوعية رافقت صديقتها إلى
إحدى فعاليات صالون الكوفة الثقافي. كان يقام فيه أحد معارض الفنون
التشكيلية ويشارك بها فنان عربي، كان حديث الصحف والمجتمع اللندني
المهتم بمثل هذه النشاطات الفنية طوال الأسبوعي الماضي، كان اليوم
ما قبل الأخير خصص للاحتفاء بموهبة الفنان العربي الفذة.

رأيته، لا بل رأيت رسوماته أولاً، كنت على اطلاع دائم على فنون
الرسم بمدارسها المختلفة. نسيت نفسي أمام روعة هذا الفن، كنت أقف
طويلاً محدقة في كل خط وشكل ولون. كنت أرى الفنان في كل لون،

في كل جرة قلم فوق سطح اللوحة، في وجوه شخوصه، وأوراق الطبيعة، في الشوارع المنسقة التي تكاد تدعو الناظر أن يخترقها، والبيوت الواقفة بزهو، سواء كانت في أحياء راقية أو في حارات ضيقة منسية في قاع المدينة. رأيته فوق الأطر الذهبية والخشبية التي تضم لوحاته الرائعة.

عرفته من رسوماته، إنساناً حزيناً، رأيت الحزن مجسماً بأصالة نبيلة في لوحاته، أدركت بفطرتي الحساسة أن توقد عقله هو سبب الحزن. تقدم شاب سائلاً بالعربية عن انطباعي حول اللوحات، رددت دون وعي دون أن أعرف مع من أتكلم:

- رأي مجروح فيما أرى، الآن على الأقل، فأنا ما زلت واقعة تحت تأثير روعة هذا الإحساس الخلاق، ما زلت محلقة وراء هذا الجمال والسحر. أنا ممن يقدرن الحزن كثيراً، ويحترمن من يتجاوز أحزانه المخزونة في أعماقه ليقدمها إبداعاً تسعد الآخرين.

التفت نحوه، كان آية من آيات الخالق، ما هذا بشر أبداً، إنه ملاك على صورة بشر، رأى انبهاري فقال يقدم نفسه ماداً يده للتعارف بود:

- أنا نجم عبد الله..عربي، أعني من إحدى الدول العربية، هكذا أفضل. رسام.. صاحب هذه اللوحات التي أعجبتك وأطريت عليها كل هذا الإطراء، كنت أعرف أن بها شيئاً غير عادي، لكنني الآن موقن أنها أكثر من رائعة.

- ظننتك يوسف، الحمد لله أن ليس بيدي سكيناً، وإلا قطعت يدي مثل أولئك النسوة.

- لا تمزحي بهذا الشكل القاسي، أردت أن أسمع رأيك لأنني وجدتك مستغرقة تماماً بما ترينه، كأنك صرت جزءاً منه.
- لا أمزح بل أقر حقيقة.

- لكنها تؤلمني.. كنت أنتظر تعليقاً أكثر جدية.
- ابتسم أرجوك فأنت فنان يعني أنت فوق الإنسان العادي، حزنك ل بل ذكائك الواضح يدل على سمو نفس وروح.

مضى أسبوع على ذلك التعارف، تلازمتنا كل أوقات فراغي من عملي ودراستي. كان يجمع بعض اللوحات المتبقية وكنت معه أساعده. قطعت ثرثرتنا التي صالت وجالت في كل ما يخطر على بال وسألته فجأة:

- أين تقيم في لندن؟
- حالياً أقيم في فندق صغير قرب النهر، أحب الأنهار كثيراً، أقيم في روما و... .

- روما..لم تخبرني من قبل.
- لم تأت مناسبة لأعلمك، لكن هل روما بعيدة كل هذا البعد عن لندن؟ لم أكن أعرف! على كل حال ها قد أصبحت اليوم رساماً مشهوداً له، صحيح أن هذا المعرض هو أول معرض خاص بي، لكن أعتقد أنه لن يكون الأخير، سنجتمع كثيراً.
- كيف أتيت إلى هنا.

- لقد أتيت بناء على دعوة من كاليري الكوفة. أنتظر دعوة قريبة من أحد المعارض الإنكليزية.

- لقد جهزت لك اللوحات بشكل أمين فلا تخشى عليها من السفر. متى تسافر؟

- احتاج بعض الوقت، لتسوية بعض الأمور الفنية والمالية، نحن في سبيل إنجاز ألبوم لكافة إنتاجي. كما يقولون في بلادنا "وجهك خير عليّ" كنت الألق المعارض الأوروبية سنوات طويلة، وفجأة وجدتني مطلوباً وإصرار. أمس تعاقدت مع بعض المهتمين على طبع لوحاتي على الكمبيوتر، تصويري معظم رسوم المجموعة ستسوق وتكون بمتناول الجميع.

وتمضي الشهور، كل منهما غارق في مشاغله وأعماله وحياته، لم يتغير شيء عند كليهما مع أنهما استمرا يتلاقيان كلما سنحت الفرصة. صار يناديها بروزا الجميلة، وهي تتأديه بالأخ نجم الساحر. صار يهاتفها كل أسبوع ثم كل يوم، لم تمنع ولم يخطر ببالها فكرة أن ما بينهما قد يتطور بحتمية الأشياء، كان أكبر من أي مكان ممكن أن تضعه فيه وكذلك كانت بالنسبة له. كان يحدثها وكأنه يحدث نفسه، لم يخف عنها أي شيء. سألتها ذات مرة:

- لم أعرف، هل أنت متزوجة أو مرتبطة بشكل أو بآخر؟

- مطلقة منذ سنوات طويلة بعد زواج قصير جداً. قد تراني متمردة على الأوضاع الخاطئة في تقاليدنا لكنني ملتزمة جداً.

- لماذا تردين بهذا الشكل الاستفزازي، لن أدعوك لشيء، فأنا مرتبط بعلاقة حب مع فتاة منذ سنوات طويلة.

- إيطالية..؟ ما اسمها؟

- أصلها عربي ولكن منذ أجيال وعائلتها تقيم في أوروبا. سأعرفك عليها ذات يوم، نحن تقريباً متزوجان.

- لم أفهم هذه ال "تقريباً" فإما متزوجان أو لا، يعني قد تتزوجان في المستقبل.

- لم أفكر بشيء مثل هذا، على كل حال، لم أكن مثلك ملتزماً في أي يوم، فقد وصلت لتلك البلاد صغيراً مراهقاً وتعيساً فكان علي.. قاطعته بجفاء:

- لست مضطراً للشرح، هذه حياتك الخاصة، أعتقد أنها لا تهمني بل ولن تهمني مطلقاً.

سنة وأخرى، وعلاقتهم تأخذ طابعاً فريداً ملتزماً زاد من احترام كل منهما للآخر. صار يدعوها إلى كل معرض يقيمه في أي عاصمة من عواصم العالم، كانت تلبى دعوته إذا كان المعرض في أي مكان في إنكلترا. ذات مرة عاد إليها بعد مغادرتها بيومين اثنين فقط، على غير العادة، استغربت وسألته:

- هل استجد عمل ما فعدت بسرعة؟

- عدت بسرعة لأمر آخر غير العمل. عدت من أجلك، بلا
مواربة، أردت أن أسألك بما أنك من هواة رسوماتي ومن أكبر مشجعي
موهبتني، متى سأرسم "لوحتي الحية" اللوحة الأعظم.
فهمت وصممت، لا تعرف كيف فهمت، ولا إن كانت بانتظار شيء
كهذا. قال مواصلاً:

- آسف إن فاجأتك، لكن الفنان أعطي مقدرة فائقة على التعبير
عن نفسه، تخيلي فناناً يرسم لوحة تعبر عن الحب ويكون محباً في
اللحظة ذاتها، سترين شيئاً رائعاً أعدك، أنت وأنا والحب في لوحة واحدة.
- أتمنى يا نجم لو كان ميلاد لوحتك هذه مرهون بحياتي ما توانيت
لحظة عن دفعها عن طيب خاطر، سأحاول أن أكون صادقة وصريحة
مثلك، أعتقد أنه باستطاعتي البوح طالما الحديث من بعيد لبعيد على
الهاتف، حاول بدورك أن تفهمني أرجوك، لأن هذه المرة الأولى والأخيرة
التي نتكلم بها حول هذا الموضوع وإلى الأبد. لا أضن عليك بنفسني إلا
لأنك أعلى علي من حياتي.

صمت طويلاً بينما كان يصله صوت نشيجها المتقطع الهامس
عبر آلة التليفون فيكاد يقفز إليها من خلاله. ودعها بصمت ووعد على
اللقاء في آخر النهار لقاء عادياً شأن كل مرة.

تقابلا في مكانهما المعتاد في مطعم صغير يقع في منتصف المتنزه
القريب من بيتها، كانا يحبانها جداً. كان خيال نجم يسرح بعيداً حين
ينظر إلى السماء من خلال السقف الزجاجي ليلاً أو نهاراً فيستوحي

أفكاراً رائعة من تلك السماء التي لا تظلم أبداً حتى وإن تلبدت بالغيوم.
كانت تستعيد طفولتها المفقودة هناك حين تلهو مع البجع والبط السابح
بلا كلل في البحيرة الكبيرة التي تتوسط المنتزه، حين تقطع قطع الخبز
وتلقيها لهم من نافذة المطعم فتضحك من أعماق قلبها وهي تراها تتسابق
للفوز بها.

كان في ذلك اليوم أكثر رقة وحناناً. في وجهه وله وليد جديد لم
تلحظه من قبل، بدد الجو الحميم الرغبة في الكتمان، انطلقت تحكي أو
تهذي وباحت بكل متاعبها ومخاوفها. رد موسياً:

- الحياة ليست سهلة، ونحن كذلك. قد تؤذينا ولكنها لا تكسرنا. لا
تصدقي أن ما نعانيه فوق طاقتنا، فالله أكبر من أن يحمل مخلوقاته فوق
طاقتها.

ومرت الأيام وأصبح في كل لقاء يحكي لها سيرة حياته بكل مرارتها
وقسوتها، فاجأها قائلاً:

- هل تصدقين أنني مثلك لم أكن أفكر بالزواج أبداً، ولكن وجودك
وحضورك غبت أو حضرت جرأني على التفكير. لم أفكر بالزواج لأنني
لا أريد إنجاب أولاد أعذبهم بمحبتتي أو بعقدي. لا أريد أن أكون أباً، فأبي
كرهني الصفتين، الأبوة والبنوة.

- هل صدقتني الآن؟ كل منا عاش التعاسة بعينها، كل منا سلب
منه معنى وجوده، كلانا عقيم. بالمناسبة، هل تحب نفسك؟ أنا لا أحب
نفسي ولن أحبها.

شد على يدها، أخافه الأسى الواضح على وجهها، قال:
- لا ألومك.. فالجراح لا تتدمل بسرعة خاصة إذا كانت من أقرب
الناس، ممن كانوا سبب وجودنا على الحياة. لكن جربي العيش مع من
تحبين، قد يكون البلمس الشافي لما أنت فيه. أنا أحبك وأعرف أنك
تحبينني كذلك.

كان صمتها ناطقاً ومع ذلك اقتربت منه وتمسكت بيده قائلة:
- لماذا أجازف.. ليس في حياتي تجربة واحدة ناجحة، كل علاقاتي
مع الآخرين كنت فاشلة، مع أهلي، مع هذا الذي كان زوجي، مع
صديقاتي، لو اقتربنا أكثر سنضيع مني.

- تذكريني بنفسي، أيام الشعور بالاضطهاد، كان ذلك قبل أن
النقي بماريو الرسام الإيطالي المشهور. كنت في ذلك الوقت في السابعة
عشرة من عمري.

- ما قصة هذا الماريو؟

- التقيت به ذات يوم حزين، كنت أهرب من البيت وألجأ إلى
الطبيعة، أرسم وأرسم حتى استعيد هدوء نفسي، وحين أعود إلى البيت
تقوم الدنيا فوق رأسي ولا تقعد. في اليوم التالي أعود للطبيعة حاملاً كل
الأسى معي، فأحس بها تفتح لي مغاليقها وأسرارها فأغوص في مفاتها
فتعطيني الكثير، تعوضني عما ألاقه على يد أبي فأرسم جمالها وأبدع
في تذوقه.

- لماذا يخلفوننا على الدنيا ثم يعذبوننا. لو خيرنا لما أتينا.

- لقد أخبرتني أن أهلك رفضوا الاعتراف بوجودك لأنك بنت وهذا ما حز في نفسك، فما أنا ولد وقد رفضت بسبب لوني الذي يختلف عن لون اخوتي وأخواتي وأهلي كلهم. أهل بلدنا لا ينادونني إلا بالخواجة، وهذا كان يسبب مأساة لأبي.

يبدو أنني خلقت لأكون فناناً، لم أستطع أن أقوم بالأعمال المطلوبة مني، ممارسة الزراعة والعناية بالأرض، أن أكون ملاكاً قاسياً جباراً أرب من يعمل عندي. كان هذا القصور عندي يثير حفيظة أبي عليّ فيعيرني بشكلي، وضعفي. كانت أشد حالات قسوته تتجلى بنظرة احتقار وهو يقول "حتى الضرب الذي يعدل الرجال لا تستحقه، فأنت طري العود فقد تموت بيدي، لا أريد أن أسجن من أجلك فأنت لاشيء".
تصوري بأنه لم يكن يعرف اخوتي بعضهم من بعض، لكن من سوء حظي كان يميزني بشكلي فقط، لم يكن يعرف رقمي التسلسلي بين أولاده من زوجته. بالمناسبة كانت أمي أقل حيلة مني بل كانت تتجاهل وجودي وأنا تاتي كأنني عارها.

- لكن كيف سمح لك بالتعليم دون اخوتك جميعهم.

- لقد دفع بي للمدارس بعد أن رأى فشلي في أعمال القوى كالتالي يقوم بها اخوتي، فكر بعقلية التاجر، ربما أتعلم القراءة والحساب فأقوم مقام كاتب الحسابات عنده، فأعمل بلممتي حسب تعبيره، كل سنة كان يقول لي هذه آخر سنة في المدرسة، وتأتي العطلة المدرسية ويدفعني للحقول ويخيب ظنه، يعيدني إلى المدرسة ربما تخلصاً من رؤيتي.

خاصة أن شكلي مع بداية الشباب صار يسبب لي مشكلة أكبر،
صفات البنات جمالها، وصفات الرجال أفعالها.

نأيت عن الجميع، ظنوه تكبراً فابتعدوا عني. صاحبت الطبيعة،
تنطلق روحي وخيالي في مداها، أغني وأرقص وأرسم، أول رسم قمت به
كان لمجموعة من الصبايا في بلدتنا وهن يتنقلن بين الحقول. قمت مرة
بعمل تمثال من الطين لأبي، ثم ألبسته بعض ثيابه ووضعته في الحقل،
كان تحفة فنية، نصبته وسط الحقول ليخيف الطيور فلا تقرب الزرع.
يومها ظننته حين يأتي إلى البيت سوف يهنئني على موهبتي، ولكن
هيئات، لأول مرة في حياتي ينهال علي بالضرب وهو يصيح ألن تكبر
وتصبح رجلاً، " صحيح أن الغاضي يعمل قاضي".

هربت منه إلى البحر، أبدأ لن أحظى منه بكلمة تشجيع، أبدأ لن
يفهم قيمة ما وهبني الله. هناك وفي هذا الوقت العصيب من حياتي
قابلت ماريو، حين رأى رسوماتي أعجبته ونصحتني بالذهاب إلى إيطاليا
لأصلق الموهبة بالعلم. حكيت له جزءاً من مأساتي فحملني معه على
الباخرة الذاهبة إلى نابولي وكانت خطوتي نحو الحياة.

بالمناسبة إنني مصرّ على أن تكون خطوتي الثانية المهمة في
حياتي باتجاهك، يعني معك أنت، عيناك الخضراوان تذكراني بالأرض
وبالخصب، سأناضل لأخلصهما من كوابيسهما.

- لماذا أنا، صدقني لا أنفعك، لقد أخذتني الحياة التي خططتها
لنفسي تماماً، فأنا إنسانة لا تحسن ربط نفسها مع الآخرين بشكل سليم.

- أنت رائعة وسوية، إنني مغرم بك، وأقدم لك نفسي ونجاحي وهذا أعظم إنجازاتي. سأقول لك سرّاً يبدو مضحكاً ولكن يستحق أن تعرفيه. حين تركتك آخر مرة وسافرت، اكتشفت أنني لأول مرة نسيت حلمي الكبير، بأن يرى أبي أو يسمع بنجاحي، ويعترف بأنني لم أكن طرياً رخواً ورقيقاً لأنني حامل، ولا لأنني أشبه البنات، بل لأنني فنان مقيد الجوارح بالمثل والسمو. وجودك في حياتي رد لي اعتباري، صرت أمنيتي وحلمي، لا بل كل أمنياتي.

ذات ليلة وجد رسمت وجهك من الخيال، رسمته كما يراه عاشق فنان، صدقيني لم يرد على بالي أن نتحاب أو لعلي ظننته شعوراً من طرفي فقط. كتبت لك كلمات شاعرية تحت صورة وجهك المتطلع للعلا، أنت طلة صبح بعد ليلي الطويل. إشراقة شمس بعد شتاء ضبابي ثقيل، ابتسامه طفل جميل بريء، ونسمة حلوة بعد الهجير. هل ترين ماذا فعلت بي؟ قد تفجرين عندي موهبة أخرى كالشعر مثلاً إن أحببتني، قد أطيّر إلى عنان السماء ولا أعود. من يحبك لا بد وأن يلق وراءك ليلحق بك، أنت هناك نجمة عالية في السماء، وأنا حارسك الأبدى.

- من منا لا يتمنى أن يعيش معنى الحياة الحقيقي، يعيش بكليته، يرى بفن، يسمع بفن، يتكلم بفن، يفكر بفن. شيء مثل هذا يعيد صلته بالبدائيات والثوابت والموت، لأنه أصبح يتفهمها. إن الله كما تقول رحيم بنا، لم يخلق فينا شيئاً عبثاً، من حقنا تحرير مشاعرنا من عقالها إذا ما

صادفت مجالاً يناسبها، وهبنا الله المشاعر ليفرقنا عن باقي المخلوقات،
أشهدك بأنها تحررت على يديك.

فتحت عينيها ما زالت على سريرها، طفرت الدموع وسارت على
خديها المشتعلين بحرارة المرض، رأت شبحاً جالساً على طرف سريرها،
كان يشبه نجم، رفعت جذعها، حدقت بالوجه الناحل المطفأ من الحياة،
كان يرنو إليها، يبكي بأنين حزين، زحفت نحوه ولامسته. صعقت، كان
كومة من عظام يسترها قميص المستشفى الأزرق، قبل أن تصرخ، مد
يديه الواهنتين وضماها إلى صدره وبكى وبكت. أغلق الباب ببطء، كان
الطبيب الذي أوصله إليها مازال واقفاً ليرى ردة فعلها، لكن المنظر كان
أقوى من احتماله. قرأ في عينيها أنها فهمت وعرفت وقدرت.

- نجم.. يا نجم عمري..يا يوسفى الساحر، أين أنت؟ لماذا
غبت..؟ متى حصل هذا؟ متى أصبت؟.

- قصتي طويلة.. لكن ما يجب أن تعرفيه أنني ومنذ أن أحببتك
وقبل زواجنا بفترة طويلة لم أحنك. كان ذلك منذ زمن طويل، أيام التشرد
والفشل، أيام صراعي المميت مع الحياة. تنقلت كثيراً شأن كل فاقد الحب
والعطف والحنان. أخبرتك ذات مرة أنني مستقر منذ فترة طويلة مع
ناديا، فتاة شابة جميلة رائعة أحببتي ورعتني بل وساعدتني كثيراً. صرت
أكلمها عنك كلما التقينا، كان ردها واحداً أنت تحبها وسيأتي يوم لا
تستغني به عنها، كنت أنفي بشدة مؤكداً أنك صديقة رائعة ولا نطمع
بأكثر من ذلك.

- نعم أذكر بأنك حكيت لي عنها، هل كانت تحمل المرض دون أن تدري؟ أكيد.. فلو أحببتك فعلاً وكانت على علم بمرضها لما..
- لم تخبرني بشيء من ذلك، لكنها فجأة غادرت البيت، تركت رسالة تخبرني بها أنها لم تعد تطبق إغراضى ونسيانى لوجودها، وهي متأكدة بأننى سأرحب بخطوتها. لا أنكر أن الأمر كان كما قالت، قدرت لها اتخاذها المبادرة، فأنا صرت معها جسداً بلا روح، صارت روحي تحوم حولك تحرسك تعيش معك.

- ماذا حصل بعد؟ هل عادت إليك؟

- لم تعد أبداً، بل لم أرها منذ أن تركت البيت، لكن يبدو أنها كانت تتابع أخبارى ونجاحى وزواجى واستقرارى. حين قدرت أن الآوان قد آن لظهور علامات المرض، وكان ذلك قبل ما يقارب السنة، أرسلت لي رسالة صغيرة جداً تقول فيها " أنا نادية لعلك لم تنس اسمى بعد، الحقيقة أنني لست نادية، لقد كذبت عليك، أنا امرأة منكودة الحظ، حاملة فيروس الأيدز. تعرفت عليك لأنك كنت شاباً في غاية الطيبة والبراءة، وفي غاية الفوران العاطفى، أحببتك.. هذا صحيح، ولكن لم يكن من هذا الأمر مفر. أهلاً بك في نادي الموت..

لم أصدق، ظننتها ترسل لي نكتة تذكرني بنفسها. بدأت البحث عنها، كدت أجن إلى أن علمت بأنها تعاني أيامها الأخيرة في المستشفى. سافرت إليها، ساقوني إلى غرفتها لم أعرفها، لم يبق منها سوى العينين. حين ناديتها فتحت عينيها ببطء وابتسمت ثم هزت رأسها

لقد عرفتني وأجهشت في بكاء مرير. انهالت عليها أسئلتني بجنون، عن المرض وحقيقة إصابتها به، عن الأعراض التي بدأت أشعر بها فتجيبني بهز رأسها. أيقنت بأن المصيبة واقعة لا محالة.

فعلاً بقيت في المستشفى ذاته بعيداً عنك، عشت أياماً عصبية بانتظار النتائج التي جاءت مثل صاعقة انقضت فوق رأسي، لم أفكر بنفسي بقدر ما فكرت فيك، أي جناية ارتكبت في حقك. أملت أن تكوني نظيفة منه، فأبتعد، وتمنيت أن أموت دون أن تعرفي ما حصل معي لكن..أه..ليس بوسعنا شيء.

- كيف عرفت أخباري؟

- لم تنقطع أخبارك عني، فقد أخبرت أبي بحقيقة مرضي، أبي بالذات أردت له العذاب في شيخوخته. رجوتهم ألا يخبروك بشيء بعد أن عرفت بأنك سافرت إليهم للبحث عني، قالوا أنك لا تتامين ولا تأكلين ودائماً مريضة. قال أبي ألا تظن بأنك نقلت لها المرض. وعندما قلت بهمس المذنب ربما، أجابني بأنه متأكد من ذلك وقد أراد إدخالك المستشفى لإجراء الفحوص اللازمة ليعيدك عن البيت ومن فيه. أمس أخبرتني أختي أنك عدت إلى لندن. اتصلت بك أمس صباحاً لأسمع صوتك فقط، كنت أحرص ألا تتطلق كلماتي المعتادة كلما سمعتك أو رأيتك فأسأل كيف أصبحت وإذ بي أسمع استغاثتك.

حضنته طويلاً، استردت فجأة شخصيتها الصلبة التي تسلحت بها

في وحدتها وألمها. ابتسمت في وجهه وقالت:

- أنت الآن بحاجة لي لأرد لك بعض ما قدمت لي، لأعطيك كل الحب الذي اختزنته بأعمالي كل عمري، سألقي هنا وسأجري التحاليل اللازمة، مهما جاءت النتائج سأبقى بقربك، ولا أتمنى من الله شيئاً إلا أن أموت بقربك أو نموت معاً.

عادا معاً، لا يهم أين ولا كيف. رأيت لوحاته التي رسمها أثناء بعده عنها، كانت رائعة كالعادة. لم تحمل النبض الحي أو الرونق البديع بقدر ما كانت تعبر عن تدهور حالته الصحية.

صار يذوي يوماً بعد يوم، تساقط شعره الأشقر الجميل، ذبلت عيناه الزرقاوان الساحرتان، لم يبق من جمال يوسف الرائع الكامل سوى كلماته المتوهجة النابضة بالحب وسؤاله الصباحي لحبيبته كيف أصبحت. صار يضحك من سذاجة المحبين، أين تكمن الروعة في إجابة يعرفها، لا يدري.

عادا إلى بيتها حسب رغبته. خفت نزهاتهما إلا فيما ندر. كلما حثته على الرسم كان يستجيب، يرسم لوحات صغيرة لا تكتمل، لكن شخوصها بلا ملامح، وغالباً ما يكونا شخصين أحدهما يتقدم نحو النور والآخر ينسحب نحو الظل. فتحتج قائلة:

- هذا ليس عدلاً فطريهما واحد، لا تفرقهما أرجوك.

كانت الليلة الأخيرة، ألمه يفتك بكل كيانه فيكتمه بانتظار استسلامها للنوم، قام إلى مرسمه، هناك أطلق العنان لأنينه المبرح. أصر على رسم لوحته الحية الأخيرة، رسم خطوطاً متشابكة على ورقة

بيضاء أمامه، لكن مع شروق شمس آخر أيام عمره كانت اللوحة الحية قد اكتملت. وجه وردته التي لا تذبل أبداً يشرق مثل شمس لا تغيب، ووجهه ممتد على مساحة الأرض الخضراء التي تدوس عليها بقدميها فوق العشب.

في الصباح وجدته ممدداً تحت اللوحة همست:

- كيف أصبحت يا حبيبي؟

لم يرد، قفزت الفكرة الرهيبة إلى ذهنها فأبى قلبها تصديقها ردت بسرعة على نفسها:

- أحبك بجنون كالعادة.

اقتربت، لامست اللوحة الجاهزة لم تجف بعد، الريشة المغموسة باللون الأسود ما زالت طرية بين أصابعه. هلعت، لقد استنزف آخر رمق في حياته ليخلد لها أجمل لحظات في أروع مكان، فقد رسم بحيرة البط والبعج، كتب تحتها بخط أسود كبير بدأ أنيقاً متناسقاً وانتهى في أبعد زوايا اللوحة: لا تتسي إطعام هذه الطيور كأننا معاً، لا تخبريها أنني خذلتك وتركتك وحيدة، ستكرهني، ستظن بأنني غادرت من هي أعلى عندي من الناس كلهم باختياري.

